محمد فريد أبو حديد

أبو الفوارس

عنترة بن شداد

دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع

١

كان الربيع يغطى جوانب الوادى بكساء من الحشيش البارض[١] والزهر اليانع ، والسماء الصافية لا تشوبها سوى قطع متفرقة من السحاب الأبيض . وكانت الشمس تميل نحو الغرب عندما اقتربت القافلة من فم الوادى عند ظلال أجمة من نخيل وسدر وأثل وسيال . وسارت الإبل فى قطار طويل تخطو خطواً وئيداً لا تعبأ بشىء مما حولها ولا يستحثها شىء من أمامها ولا من خلفها ، وكان يرن فى الفضاء صوت الحادى يتغنى بأراجيز يمزج فيها بين أنغام الحرب وأنغام النسيب . فكانت الإبل تسير رافعة رؤوسها نشيطة كأنها تصغى فى حماسة إلى ذلك الغناء المطرب .

وكان الفتى الحادى يسير فى صدر القافلة آخذاً بزمام بعير عليه هودج قد طرحت عليه ثياب ملونة مخططة من حرير يبرق فى ضوء الشمس الغاربة ويخفق فى رفق مع النسيم الهادئ .

وكان الفتى شابًّا أسمر اللون يشبه قوامه الرمح الذى فى يمينه ، قامة عالية ورأس مرفوع وصدر فسيح ، وقد شمر عن ذراعين مفتولتين قويتين ، وهو بين حين وحين يلتفت نحو الهودج فتبرق عيناه فى لمح خاطف ، ثم لا يلبث أن يتجه إلى أمامه ناظراً إلى فم الوادى مستمرًّا فى

---

(١) البارض : أول ما يخرج من نبت قبل أن تتبين أجناسه .

الغناء بصوته الملىء . وكان الناظر إلى وجهه يرى أنفه الأقنى ينحدر إلى فم قوى فيه شىء من الغلظ ، ويلمح على جبينه عبسة فيها شىء ينم عن حزن كمين . ولما بلغ الركب فم الوادى أوقف الفتى البعير الذى كان آخذاً بزمامه فوقف القطار كله لوقوفه ، وأسرع العبيد والأتباع الذين كانوا يسيرون مشاة فى آخر الركب فساقوا الرواحل التى كانت تحمل الزاد والماء ، وأخذوا يضربون أعجازها بعصيهم الغليظة حتى أناخوها فى ناحية من جانب الوادى . وأما الفتى فقد أناخ بعيره وأزاح الستار عن الهودج ونظر إلى الفتاة التى كانت فيه وقال لها باسماً .

— منزل كريم يا عبلة .

فقالت الفتاة باسمة :

— شكراً لك يا عنترة .

ومد الفتى يده ليسندها فاتكأت على ساعده القوى ووثبت خفيفة وهى تقول :

— لقد أجهدك السير وأنت تأبى الركوب منذ اليوم .

فأسرع عنترة قائلا :

— وكيف يصيبنى الجهد وأنا أحدو بعيرك يا سيدتى ؟

فنظرت إليه وكانت عيناها تبتسمان وسارت إلى ظل سدرة وهى تقول :

— لم أسمع شيئاً يشبه حداءك يا عنترة . لقد أحسست كأن البعير يطرب لإنشادك .

فقال عنترة :

— إنه يطرب ليشاركنى يا سيدتى . فهو يعرف أننى أنشد فى وصفك أنت .

فضحكت الفتاة ضحكة تشبه غناء الطير ، وأسرع عنترة فرمى شملته على الرمل ومدها لتجلس عليها ، ثم نظر إليها نظرة باسمة شملت كل صورتها ، وأسرع خفيفاً يثب فى خطواته لكى يرى سائر من فى القافلة من بنات ونساء ليساعد من تحتاج منهن إلى المساعدة .

وسارت الفتاة تخطر فى ظل السدر تنظر إلى الإبل وهى تنيخ وأصواتها تدوى وهى ترغو ، وكان قوامها مثل الغصن الرطيب إذا اهتز مع نسيم الربيع .

تلك هى عبلة ابنة الفارس العبسى مالك بن قراد ، وكانت آتية من عرس ابنة خالتها فى قبيلة هوازن عائدة إلى منازل قومها عبس فى أرض الشربّة والعلم السعدى ، وكان ذلك المنزل الذى نزلته آخر مرحلة قبل نهاية سفرها الطويل .

كانت عبلة تلبس ثوباً معصفراً من الكتان يلمع فى نور الشمس فاقعاً ، وتضع حول رأسها خماراً من الحرير المصرى من صناعة (دبيق) يتغير لونه فى شعاع الضوء ويتألق فوق وجهها الجميل . وكان لونها الخمرى مشرباً بحمرة يسرى فيها رونق الشباب ، وعيناها السوداوان تضيئان فى حلاوة ، فإذا نظرت بهما ترقرقت فيهما بسمة وديعة . وكان فى أذنيها قرطان من الذهب تتدلى منهما حبات من لؤلؤ البحرين أهداهما إليها أبوها مالك

ابن قراد من غنيمة غنمها من سبي قافلة كانت تهبط إلى أرض الحجاز .

وأقبل نحوها نساء أعمامها وبناتهن ومن كان معهن من آلهن بعد أن نزلن من هوادجهن ، فأسرعت نحوهن تستقبلهن وكانت فيهن ابنة عمها مروّةُ ابنة شداد . فقالت لها تعابثها :

ـ أنت أولا ونحن بعدك . ألست يا عبلة أميرة فتيات عبس ؟

فنظرت إليها سُمية أمها باسمة وقالت :

ـ أهي الغيرة مرة أخرى يا مروة ؟

فقالت مروة ضاحكة :

ـ سوف أشكو هذا العبد لأبي . إنه عبد أبي شداد ولكنه لا يخدم إلا عبلة .

فقالت عبلة في نغمة عتاب :

ـ ألا ترفقين به يا مروة ؟ أليس هو عنترة بن زبيبة التي أرضعتك ؟

فقالت مروة ضاحكة في خبث :

ـ نعم وهو الفتى الذي يعلي ذكر عبس بالإنشاد في جمال بناتها .

فصاحت عند ذلك إحدى الفتيات تقول :

ـ ما هذا الحديث ويكاد العطش يقتلني ؟

وقالت أخرى :

ـ ألا تعرفن مكان الحوض ؟

ثم اندفعت تجري نحوَ وهدة في جانب الوادي الصخري ، وأسرع

الفتيات وراءها فلم يبق إلا سميّة مع بعض النساء وقد استلقت فى الظل فوق الشملة التى كان عنترة بسطها لعبلة .

ولما فرغ عنترة من إناخة الإبل فرّق العبيد والأتباع فرقاً ، فأمر بعضهم بأن يذهبوا لسقاية الإبل ، وأمر آخرين أن يضربوا أخبية النساء عند فم شعب[١] قريب من الماء ، وأمر غيرهم أن يوقدوا النيران لإعداد الطعام . ثم ذهب إلى ناقة بيضاء فحلب منها فى إناء ملأه ، ووضعه فى الظل فوق صخرة عالية ليبرُد فى الهواء . ومضى بعد ذلك إلى البئر فسقى جواده ، ثم ركبه ودار حول الوادى ليرى هل هناك قوم ينزلون على مقربة من الماء . حتى إذا ما اطمأن إلى أنه فى مأمن . وأن ليس هناك ما يخشاه ، أوغل بين الكثبان وجعل يجوس خلالها ، ويتأمل ما على رمالها من آثار الأقدام وأخفاف الإبل ومخالب الحيوان ، ثم عاد يسير وئيداً وهو يغنى وينقل طرفه فى جوانب الأفق ، حتى اقترب من الماء فوثب عن فرسه وألقى زمامه على ظهره وبعثه إلى ناحية من الوادى ، فحمحم الجواد ووثب يقطف من أطراف الأعشاب البضّة[٢] الخضراء .

واتجه عنترة بعد ذلك إلى الماء وهو لا يزال يغنى ، وكان العبيد قد فرغوا من سقايتهم . فسمع من وراء شجيرات صوت فتيات يضحكن ويمرحن فى أقصى شعب صخرىّ من شعاب الوادى .

وكان يعرف ذلك الشعب وفيه حوض واسع من الصخر تجتمع فيه

---

(١) الشعب : الطريق بين جبلين . (٢) البض : الطرى الرقيق الجلد الممتلئ .

المياه إذا أمطرت السماء فيكون مثل بحيرة صافية تظللها أغصان السيّال . فأطل من وراء الشجيرات فرأى عبلة وصاحباتها يتواثبن ويعبثن بعضهن بالماء ويتقاذفن به . ورأى عبلة وهى تلهو بينهن وتجاوبهن فوقف يتأمل وجهها ويستمع إلى صوتها إذ تكركر فى ضحكها ، وعاودته ذكريات أحلامه التى كان يكتمها فى طيات صدره ولا يجرُؤ على أن ينطق بسرها . وأحس قبضة حزن أليم تعصر قلبه إذ تذكر أنه لا يزيد على أن يكون عبد عمها شداد . نعم فما كان عنترة سوى عبد من عبيد ذلك البطل العبسى الباسل الصارم . ولم يكن ليجرؤ على أن يفوز من عبلة بأكثر من أن يدعوها قائلا « سيدتى » .

وفيما كان هائماً فى خياله تذكر قعب اللبن الذى وضعه فوق الصخرة ليبرد فى الهواء فأسرع إليه وعاد به فجعله على حجر عند فم الشعب ليكون قريباً من عبلة إذا خرجت مع صاحباتها .

وجعل يفكر فى نفسه حزيناً وهو واقف ينظر إلى الفتيات وهن لا يشعرن بوجوده . لقد ملأ وعاء اللبن على عادته كل يوم لتشرب منه عبلة ، قانعاً بما تكافئه به من نظراتها وبسماتها . ولكنه ما كان يجرؤ على أن يتنفس باسمها أمام أحد من عبس خوف أن يتحدث الناس بأنه عبد يتطلع إلى ابنة مالك أخى سيده شداد . لقد كان يحاذر أن يتحدث أحد بأنه ينظر إليها إلا كما ينبغى للعبد أن ينظر إلى مولاة له ، فما كان مالك بن قراد ليرضى أن يتطلع عبد مثله إلى ابنته الجميلة التى يتنافس على

التقرب إليها سادة الشبان من كرام الأنساب ، وما كان أخوها المتكبر عمرو بن مالك ليرضى أن يعيره أصحابه من فتيان عبس بأن عنترة العبد يطمح إلى أن يملأ عينيه من أخته .

وقف عنترة عند فم الشعب سابحاً فى خياله وهو ينظر إلى عبلة بين الفتيات ويستمع إلى صوتها بين أصواتهن وامتلأ قلبه شجناً . أليس هو عنترة الذى يحمى حمى عبس إذا أغار المغير على سرحها[1]؟ أليس هو الفارس الذى سار ذكره فى قبائل العرب وتغنى الركبان بقصائده فى تمجيد عبس ؟ أكان فى عبس كلها بطل يستطيع أن يثبت له فى نزال أو ينكر فضله فى الدفاع عن الحرم ؟ ومع ذلك فقد كان لا يزيد على أن يكون عبد شداد بن قراد . وفيما هو فى خيالاته رأى عبلة تقترب من فم الشعب وتميل فوق حوض صغير لترى صورتها على صفحة مائه ، وجعلت تصلح من شعرها الذى اضطرب فى أثناء جريها ولعبها . فلم يملك نفسه واندفع من مكانه مسرعاً نحوها وقال لها بصوت هامس :

— ألا ترين عَرارة يانعة من عرار الربيع ؟

فجفلت عبلة وصرخت عند سماع الصوت فجأة ، ولكنها اطمأنت عندما رأته وقالت ضاحكة .

— لك الويل يا عنترة !

فمضى عنترة قائلا :

---

(١) السرح : الماشية مثل الإبل .

— أو أقحوانة باسمة سقاها الندى ؟

وأقبلت الفتيات من آخر الشعب عندما سمعن صوت عبلة . فلما رأين عنترة إلى جانبها انفجرت منهن ضحكة مرحة ، وأسرعن إليه يصحن به ويتواثبن حوله ويجذبن أطراف ثوبه، وكل منهن تتجه إليه بكلمة من فكاهة أو سباب مزاح .

وقالت مروة ابنة شداد :

— ماذا جاء بك إلى هنا ؟

فمد يديه نحوها فى ضراعة وقال باسمًا :

— لأكون فى خدمتك يا سيدتى .

فقالت مروة ضاحكة :

— فى خدمتى أنا ؟

فضحكت الفتيات وأقبلن عليه وكل منهن تقذفه بكلمة ، وهو ينقل نظره بينهن ضاحكاً حيناً ومتظاهراً بالغيظ حيناً ، وهن يزدن منه ضحكاً ويمضين فى العبث به .

وأراد أن يصرفهن عنه فذهب إلى وعاء اللبن فأقبل به وقدمه إلى عبلة قائلا :

— هذا شرابك ياسيدتى . لقد بردته الشمال وهبت عليه روائح الأقاحى .

فهجم عليه الفتيات يردن أن ينزعنه منه ، ولكنه منعه حتى قدمه إلى عبلة قائلا :

— هذا شرابك يا سيدتى .

فقالت له عبلة فى شىء من الغضب :

— حسبك يا عنترة . إنك تُجرِّؤهن علىّ .

فمد يده بالقعب نحوها باسمًا وقال :

— لا عليك منهن فهنّ كما تعرفين حمقاوات عبس .

فعلا ضحك الفتيات وأحطن به فنزعن القعب[١] منه وأخذته مروة قائلة :

— هات أيها العبد الآبق[٢] .

ثم شربت منه وتداولته صاحباتها فلما فرغن من الشرب أقبلن على عنترة مرة أخرى وأحطن به عابثات واقتربت منه فتاة فصاحت :

— وحق مناة لا ندعك حتى تنشد لنا من شعرك .

فصاح سائرهن :

— نعم أنشدنا يا عنترة .

وقالت مروة فى خبث :

— أنشدنا وإلا قطعناك حتى لا ندع منك إلا أسنانك البيضاء .

فالتفت عنترة حتى وقعت عينه على عبلة وقال :

— لن أقول شيئاً حتى تأذن لى سيدتى .

---

(١) القعب : الإناء الضخم .

(٢) الآبق : الهارب .

فاتجهن جميعاً إليها وقلن لها :

ــ مرى عبدك أن ينشدنا وإلا أحطنا بك أنت ونزعنا غدائر شعرك .

فقالت عبلة ضاحكة :

ــ حسبكن أيتها الفتيات سخفاً .

فصاحت بها مروة :

ــ مريه يا عبلة أن ينشدنا . مرى هذا العبد الذى لا يأتمر إلا بأمرك . لقد انتزعنا منه وعاء اللبن ولكنا لا نقدر أن ننزع منه الشعر .

فقالت عبلة وهى تظهر الغيظ لعنترة :

ــ ما أخبثك يا عنترة إذ تحرّض هؤلاء علىّ مرة بعد مرة .

فقال عنترة :

ــ وماذا يغضبك علىّ يا سيدتى ؟ إننى لا أرضى بأن أكون عبداً لواحدة غيرك . لست أرضى أن تكون سيدتى سواك .

فزاد ضحك الفتيات وقالت مروة :

ــ عنترة عبد عبلة ! هكذا نسميه منذ اليوم بعد أن كان عبد شداد .

فأقبلت عبلة عليها ودفعتها برفق فى صدرها وصاحت بعنترة فى غضب باسم :

ــ قل شعرك يا عنترة حتى تكمد صدورهن . فوحق مناة إن الغيرة لتأكل قلوبهن كما قالت سمية منذ حين . أنشد شعرك حتى يملأ الغيظ صدورهن .

فوثب عنترة فى مرح وجعل ينشد متغنياً بقطع من شعره، والفتيات يضربن بأكفهن على وقع إنشاده ، وعبلة تنظر إلى وجهه الأسمر الحسن القسمات وتتأمل حركته الرشيقة وهو يمثل مواقفه فى القتال حيناً ، وطعناته فى العدو حيناً ، أو يصف فرسه فى معمعة الحرب ، أو سقوط الأبطال صرعى من حوله مضرجين بالدم ، حتى انتهى إلى النسيب فجعل يصف محاسن فتاته ونبل شيمها وعلو حسبها . وتغير مظهره عند ذلك فاعترته رجفة واربدّ وجهه الأسمر وتهدجت نبرات صوته . واتجه إلى عبلة ببصره كأنه يخاطبها بما فى نسيبه من الأوصاف . ثم هدأت حركته بعد عنفها ، ولانت نظراته بعد أن كانت تخطف كالبرق اللامع ، وفتحت الفتيات أعينهن مأخوذات بما كان ينبعث فى ثنايا شعره من حرارة ، حتى انتهى من إنشاده وهو يلهث وصدره يعلو ويهبط فى عنف .

ثم نظر نظرة طويلة إلى عبلة وهو صامت ، وهدأت الأصوات لحظة وعبلة تنظر إليه فى دهشة عقدت لسانها عن اللفظ .

لقد كانت تلك أول مرة سمعته ينشد بهذه الحرارة ويتجه إليها بهذه النظرة .

ثم انفجرت صيحة من الفتيات واندفعن نحو عنترة يستعدن إنشاده ، ولكنه كان مطرقاً حزيناً صامتاً . وانفلت مسرعاً من بينهن فذهب إلى فم الشعب بطيئاً ، فما زال حتى بلغ المكان الذى ترك فيه فرسه فوثب عليه وهمزه فانطلق به بين الكثبان وهو غارق فى شجونه الثائرة .

وذهبت الفتيات إلى حيث ضربت الخيام ، وأقبلن على من هناك من النساء ، فجعلن يتحدثن إليهن بما كان ، وكل منهن ترسل فى حديثها كلمة تصوّر بها ما أحست من اتجاه عنترة إلى عبلة فى إنشاده العجيب ، وكانت أشدهن خبثاً مروة ابنة شداد، فأرادت أن تغيظ عبلة ابنة عمها فجمعت الفتيات وجعلت تنشد وهن يرددن مصفقات فقالت :

أما رأيتم عنترة ؟ يسير سير القسورة
فى حلة معصفرة ولمّة مضفرة[1]
وعمة مكوّرة
أما سمعتم قوله ؟ أما عرفتم فعله ؟
ويل له يا ويله ، ينشد منذ الليلة
عنتر عبد عبلة

وتعالى ضحكهن بعد ذلك وجعلن يرددن النشيد ويعبثن بعبلة حتى غضبت وذهبت نافرة ، فسرن وراءها وجعلن يجذبنها وهى تدافعهن حتى دخلت إلى خبائها .

---

(١) اللمة : الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن .

٢

كان القمر يقترب من التمام فى شهر رجب الحرام ، فلم يكن هناك ما يدعو عنترة إلى الخوف من غارة مفاجئة ، فما كان العرب لينتهكوا حرمة ذلك الشهر الذى تعودوا فيه قضاء مناسك الحج إلى الكعبة أو إقامة أعياد آلهتهم فى منازل قبائلهم . ولهذا سار يضرب بين الكثبان هائماً حتى بسط القمر نوره على البراح ولاحت فيه رؤوس النخيل والأشجار مطبوعة على صفحة السماء كأنها لوحة فنان صناع .

وكان فى سيره يناجى نفسه بما فيها من شجون وهموم ، وقد وقع فى قلبه أنه قد أخطأ وأفصح أو كاد يفصح عما كان يضمر فى قرارة صدره من تعلق بالفتاة التى ملكت عليه فؤاده .

كان يحدث نفسه بأنه لا يزيد فى نظر الناس على أنه عبد لا ينبغى له إلا أن يقوم على خدمة سادته الذين ائتمنوه . ولكنه كان مع ذلك يحس فى نفسه غضبة وثورة . كان يحس فى نفسه أنه فتى الفتيان وأنه بطل عبس كلها . فلقد طالما ناداه سادة القبيلة ليفرج عنهم كربة الحرب إذا أغار عليهم الأعداء ، وقد طالما لبّى نداءهم وبرز فى صدر الفرسان فلا يقف له العدو بعد أن يذوق من وقع طعناته ما يجعله يؤثر الهزيمة والفرار . فإذا ما انجلت الكربة وعاد سادة عبس بالنصر وحملوا من أموال

العدو وسلاحه ما غنمه لهم حازوا ذلك كله لأنفسهم فقسموه بينهم ولم يجعلوا له إلا نصيباً ضئيلا ، فكانوا لا يجعلون له سوى نصف سهم من الغنائم ويستأثرون هم بكل ما سلبه لهم من الأعداء .

وكان مع هذا لا ينكر عليهم أثرتهم ولا ينطق بكلمة شكوى . فما كانت تلك الأموال كلها لتحمله على أن يتألم أو يشكو .

ولكن شيئاً واحداً كان يملأ قلبه حزناً وغضباً ، وذلك أنه كان فيهم عبداً ولم يكن اسمه بينهم سوى عبد شداد .

وكان كلما تأمل حاله تعجب من نفسه كيف يرضى بأن يقيم فى قوم يحميهم ويدافع عنهم ويجلب لهم النصر ويحمل إليهم الغنائم ثم لا يجد منهم إلا الإنكار والبخل ولا يسمع من ندائهم إلا قولهم « عبد شداد » . وزاد من عجبه أنه كلما تذكر سيده شداداً أحس نحوه عطفاً .

كان حب شداد يملأ قلب عنترة فلا يزعزعه شيء مما يزعزع حب القلوب . كان شداد صورة البطل عند عنترة وصورة السيد وصورة المعبود . كان يقسو عليه أحياناً ويعنف معه فى الحديث أحياناً ! بل لقد كان أحياناً يمد إليه يده بالسوط فيتحمل منه الضربة جامداً ولا يزيد على أن يقول له :

— لن تستطيع أن تصرفنى عن حبك يا سيدى .

وكثيراً ما سأل نفسه أحقًّا ما زعمته زبيبة أمه إذ قالت له فى صباه إنه ابن شداد ؟ لقد سمع هذا القول يوماً وهو صغير فامتلأ قلبه فرحاً

وكبراً، ولكن أمه كانت توصيه ألا يعيد قولها للناس خوفاً من أن يغضب سيدها الصارم . فلما كبر عنترة وصار فارس قومه أمسكت زبيبة عن قولها فكان عنترة كلما أراد أن يسألها عن نسبه راوغته وقالت له إن شداداً سيدها الذى أكرمها ورباه وربى سائر أولادها .

ولكن عنترة كان يسأل نفسه كلما خلا بها : ألا يكون ذلك الرجل حقاً أباه ؟ فإذا لم يكن شداد أباه فما سر ذلك الحب الذى يحمله له ولا يستطيع أن ينزعه من قلبه مع كل ما يلقى من صرامته وكبرياثه ؟

مضى عنترة يهيم بين الكثبان فى ضوء القمر وهو سابح فى شجونه ، وكان يحس أن الحركة فى ذلك الفضاء الذى يغمره النور الرقيق تبعث فى نفسه راحة وتخفف من شدة الثورة التى كانت تعصف بين أضلاعه . وكانت صورة عبلة تتمثل له عند كل خطوة يخطوها . كان يرى صورتها فوق كل صخرة متلألئة وعند كل ثنية ظليلة . كانت صورتها تخفق فى الفضاء اللامع وتنطبع على صفحة البدر المنير .

كانت صورتها تملأ الوجود من حوله كما تملأ كل وجوده .

فهل كانت عبلة حقاً لا تزيد على أن تكون سيدة وهو عبدها أو عبد عمها ؟ لقد لاحت له الحياة باطلة كريهة عندما تأمل أنه لا يستطيع أن يجهر بما يحمله لها ولا يجرؤ على أن يتطلع إلى التسامى نحوها . فكان أحياناً يلوم نفسه على أنه قد اندفع فتكلم وأنشد الشعر حتى بلغ من الأمر أن سبب لعبلة حرجاً وغضباً . ولكنه كان يعود إلى نفسه غاضباً ويلوم نفسه

على أنه يرضى بأن يبقى فى بنى عبس عبداً . فما الذى يمنعه من أن يتكلم كما يتكلم الناس ؟ وما الذى يقعد به عن أن يتطلع إلى عبلة التى امتلأ قلبه بحبها ؟ فهل رضى بأن يقضى كل حياته عبداً خاضعاً يكتم ما يحسه ويقنع بأن يعبدها فى خلواته صامتاً ؟ هل يرضى بأن يبقى بين قومه عبد شداد فلا يسمح لنفسه بأن ينطق بكلمة تنم عن حبها ؟ وكان كلما سرح به الفكر فى شعابه عاد فسأل نفسه عن حقيقة تلك الأقوال التى سمعها فى صباه من أمه إذ قالت له إن شداداً أبوه . ألا يكون ذلك حقًّا ؟ وما الذى يمنعه من أن يذهب إليها فيسألها ويعرف منها حقيقة نسبه ؟ فإذا كان عبداً كما يزعمون وضع السيف فى صدره فخلص من الحياة . وأما إذا كان ابن شداد فلِمَ يرضى بأن يكون بين الناس عبداً ؟

ولما استقر على هذا الرأى أحس أن نور القمر يزيد فى عينيه بهاء وأن نسيم الربيع يهب على جبينه المتقد أكثر رفقاً وأن رائحة الزهر تنبعث إلى شمه أذكى عطراً ، وأن منظر الكثبان والشعاب ورؤوس النخيل والشجر يبدو له قطعة من عالم سحرى يفيض جمالا ويناديه أن يزداد تعلقاً بالحياة .

وعاد إلى مضرب الخيام خفيفاً بعد جولته وذهب قاصداً إلى خباء عبلة ليرى كيف باتت ، وليدور حول الأخبية قبل أن يذهب إلى مضجعه ليستريح .

ودار حول آخر ثنية تفضى إلى فم الوادى وهو منصرف إلى هواجسه ،

فسمع صوتاً يناديه من ورائه :

أما إنك لحارس غافل .

فالتفت مجفلا من المفاجأة ولكنه تبسم عندما رأى أخاه شيبوب واقفاً فى ظل الثنية بقامته الطويلة والرمح فى يمينه مغروز فى الرمال .

فقال يخاطب أخاه :

— لم يكن غيرك ليفعل ذلك أيها الخبيث .

فقال شيبوب : بئس حارس القوم أنت ! تبعد عن منازل النساء وتخلو بنفسك إلى مثل هذا الوقت من الليل ؟

فقال عنترة :

— ألسنا فى الشهر الحرام ؟

— فقال شيبوب ضاحكاً :

— وهل منع الشهر الحرام من أراد الانتقام ؟ ألا تعرف أنك واتر[1] القبائل ؟

فقال عنترة فى كبرياء :

— صدقت ولكن العدو لا يجرؤ على أن يقترب منى .

فقال شيبوب : وهل يجد العدو غرة إلا فى مثل هذه الليلة ؟ إنك لتناجى النجوم كأنك تحدثها . لقد رأيتك وأنت سائر واتبعتك ببصرى حيث سرت ، وقد خيل إلى أنك تخلو إلى شيطانك .

---

(١) وتر القبيلة إذا قتل أحداً من أفرادها فكان مطلوباً للثأر .

فقال عنترة : نعم يا شيبوب قد صدقت . إنى أخلو إلى شيطانى . وإنى لأنظر إلى النجوم فيخيل إلى أنها تحدثنى .

فقال شيبوب ضاحكاً : ألا تقول لى ما أوحت به إليك ؟

فقال عنترة جاداً : أظنك لا تفهم حديثها .

فقال شيبوب ساخراً : أظنها تضحك منك أحياناً .

فقال عنترة : إنها تفعل يا أخى . وهى أحياناً تبكى وأحياناً تغضب .

فقال شيبوب : ألا تقول لى ما كانت تحدثك به الساعة ؟

فقال عنترة فى حزن : كانت تصيح بى : « أيها العبد لم جئت إلى هذه الأرض ؟ »

فقهقه شيبوب وقال : إنها إذاً لحمقاء ، لقد أتيت إلى هذه الأرض كما يأتى الناس جميعاً : تقذف بهم أمهاتهم إليها .

فقال عنترة : صدقت ، إنها أمى التى قذفت بى إلى هذه الأرض . إنها هى التى جاءت بى إلى هذه الحياة لأرعى إبل شداد ، ولأقضى نهارى وليلى فى فيافى أرض الشربة لأحمى إبله من الذئاب والسباع . هى التى قذفت بى إلى عبس لكى أحارب من أجلهم وأحوز لهم الغنائم التى يسمنون عليها ، ثم يمرون بى فينظرون إلىّ بمؤخر أعينهم قائلين : « هذا عبد شداد » . فإذا ماجاء الليل أويت إلى مضجعى فلا أكاد أستقر عليه حتى تساورنى الهموم وتلهب قلبى فأثب خارجاً من ظل بيتى لكى أستروح من أنفاس الليل البارد لعلها تذهب عنى حرارة حزنى .

فقال شيبوب فى خفة : أهذا ما دفعك إلى السير فى البراح ؟

فقال عنترة فى حزن : نعم . هذا ما دفعنى إلى أن أهيم على وجهى وكان يلهب ظهرى كما يلهب السيد ظهر عبده بالسوط .

فقال شيبوب ضاحكاً :

لقد حسبت أنك على موعد من إحداهن . إن النساء يُعجبن بك يا عنترة ، ولو كنت أفوز منهن بعشر إعجابهن بك لما قضيت ليلة إلا على موعد .

فضحك عنترة فى فتور وقال : إنما هو طبعك الذى أعرفه يا شيبوب. لست أحب أن أغضبك ولا أن أسبك كما يسبنى الناس فأقول لك : « أيها العبد » . بل لست أجرؤ أن أقول لك ذلك لأننى مثلك يقول لى الناس : « أيها العبد » . ولكنى كلما رأيت خصالك لم أملك إلا أن أحس نحوك بشىء من الازدراء . إنها شيم العبيد التى فطرت عليها يا شيبوب فتجعلك لا ترى من المرأة إلا جسدها .

فضحك شيبوب ضحكة طويلة وقال :

— وماذا رأيت أنت منها ياعنترة؟ بل ماذا رأى منها غيرك من الرجال ؟ بل ماذا ترى منى أنا ومن غيرى من الرجال ؟ إننى لا أرى من أحد شيئاً إلا جسده ، ولا أرى منك إلا ذلك الجلد الأسود الذى يشبه جلدى . وخير لك أن تستمع إلى نصحى وتغتنم فرص أيامك . فمن يدرى؟ من يدرى ماذا يحمل لك الغد يا عنترة؟ لعل طعنة تصيبك فتنفذ بين ضلوعك فلا يجديك

شيء من كل هذه الأحاديث التي تتحدث بها إلى النجوم . أفٌّ لك أيها الرجل ، أترى الفتيات يتواثبن حولك ويجذبنك من أطراف ثوبك ثم لا تجيب هذه بقبلة وهذه بموعد ؟ لقد كنت واقفاً فوق هذه الصخرة أرقبك وأنت بينهن كالحجر الأصم .

فقال عنترة معبساً :

— لقد علمت يا شيبوب أنني لا أحب أن أعبث بالحزى . ولست أرضى أن أختلس الحب اختلاساً . إنني لا أحب إلا فتاة واحدة ولا أرضى منها إلا بأن تحبني هي . لست أرضى منها ولا من غيرها بلذة أفوز بها خلسة . ولو كنت أرضى بأن أحب من لا يحبني وأقنع من المرأة بجسدها لما ترددت في أن أسطو على من أردت أن أفوز به فآخذه قسراً ، ولخير عندي أن أقتحم على الرجل بيته فأنزع منه امرأته أو أختطف ابنته عنوة وأدعوه إلى نزالي حتى أقتله وأمضي بالمرأة سبية ، هذا خير عندي من أن أختلس قبلة من امرأة أو أن أخرج في الليل أتلصّص إلى موعدها كما يدب الذئب إلى الشاة في خلوة من الحارس . لست في شيء من ذلك يا شيبوب وما هو من طبعي . إنما هو طبع العبد الذي يوحى إليك بما أنت أهله .

فقهقه شيبوب في مرارة :

— طبع العبد الذي فيّ أنا ؟ أتسبني بذلك يا عنترة ؟ كأني بك أحد هؤلاء الذين يجرون أذيالهم كبراً عند نادي عبس .

فقال عنترة بعد لحظة صمت :

— صدقت يا شيبوب فى قولك فلا تؤاخذنى .

لقد دفعنى الغيظ إلى العنف فى قولى .

ومد يده فأخذ شيبوب من ذراعه وذهب به إلى جانب فجلس إلى جانبه وجعل يمسح رأسه مداعباً ثم قال له بعد حين :

— لا تؤاخذنى بما قلت فإنى أحبك يابن أمى . إنى عرف أنك الرجل الذى تحبنى أشد الحب وأخلصه . وإنك عندى لأكرم من هؤلاء السادة الذين يشمخون بأنوفهم كبراً وهم لا يساوون شيئاً . إنك لسريع الجرى كالظليم ، وما أبدعَ منخريك إذا هما انفتحا فى جريك كما ينفتح منخرا الفرس الأصيل وهو يعدو . وإنك لشجاع القلب طيب النفس لولا هذا الرعب الذى يعتريك إذا رأيت منظر الدماء .

فأنا أحبك يا شيبوب وأجل مكانك وإن كنت أخالفك فى رأيك فيما تذهب إليه .

فتملص منه شيبوب برفق ونظر نحوه باسماً حتى لمعت أسنانه البيضاء فى ضوء القمر وقال له :

— وإنى والله أحبك وأرثى لك من هذه الوساوس التى تؤرقك وتضنى قلبك . دعنى أيها المسكين أمضى لشأنى فإنى تركت فى خيمتى خمراً وثريداً وقمت أبحث عنك منذ أبطأت فى جولتك ، فقد خشيت أن يكون قد أصابك شر . وأحمد مناة على أنك قد عدت سالماً ولم يصبك شىء سوى مناجاة النجوم .

فتبسم عنترة وقال : عد إلى خمرك وثريدك فانعم بهما ، ولو كان فى قلبى فراغ لشاركتك ، فما أحلى الخمر على فكاهتك .

فقال شيبوب : ألا تأتى معى فتصيب كأساً ؟ إنها من خمر الشام وقد أخذتها من يهودى فى هوازن .

فقال عنترة : هل اشتريتها ؟

فتبسم شيبوب قائلا : كانت ناقة اليهودى محملة فى طرف الحى وهو يبيع الخرز للنساء . فلما بدأنا السير سقتُ الناقة بما عليها وراء قافلتنا . ألا تذوق معى كأساً من خمره ؟

فضحك عنترة وقال : هنيئاً لك خمرك يا شيبوب . أما أنا فليس عندى موضع للشراب الليلة .

فقال شيبوب وهو يهم بالقيام :

— كل أيها الرجل واشرب ، فوحق مناة ما يخرج المرء من هذه الحياة إلا بهذين : الطعام والشراب .

فقال عنترة باسمًا : والمرأة ؟

فقال شيبوب ضاحكاً : أما المرأة فلا يخرج المرء بها . ومن ذا الذى ينوح عليه إذا قتل ؟ ومن ذا الذى يحدث الناس بما لم يكن منه ؟ ولكنك منذ ذكرتنى بالمرأة يا عنترة أقول لك إنك لتهجس بها فى ليلك ونهارك وتخفى فى قلبك ما يأبى إلا أن يذيع .

فالتفت إليه عنترة باهتمام وقال :

— ماذا تعنى ؟

فقال شيبوب : أعنى ما قلت .

فقال عنترة : دع الخبث وقل لى ما تريد أن تقوله مفصحاً .

فقال شيبوب وهو قائم : دعنى أذهب إلى ثريدى وخمرى .

فنظر إليه عنترة فى هدوء وقال : اجلس يا شيبوب وحدثنى فإنى أحب أن أحس وجودك معى . إننى أحس فى جوارك شيئاً يشبه ما يحسه الطفل فى جوار أمه .

فضحك شيبوب وقال : ليت زبيبة أمك تسمع قولك هذا . إنها تقتل نفسها همًّا من أجلك وتقطع قلبها حزناً عليك ، ولكنك ما تزال تجفوها وتعذبها بعنف أقوالك .

فغمغم عنترة كأنه يحدث نفسه :

— ليتها لم تكن ولدتنى . ألا أبلغها إذا رأيتها أننى أمقتها وإن كانت أمى . قل لها إنها أشأم أم وهبت الحياة لوليدها . ثم اسألها عن أبيك وعن أبى إذا عرفتهما . أتعرف زبيبة ذلك القرد الذى انحدرت أنت من صلبه؟ أهى تعرف القرد الذى أولدها عنترة ؟ سلها لعلها تجيبك يا شيبوب . لقد طالما سألتها عن أبى وتأبى إلا أن تراوغنى فى الجواب كلما سألتها . لقد سمعتها يوماً تقول لى إننى ابن شداد . ولكنها لا ترضى أن تعيدها على سمعى . وكلما رأيت ذلك الرجل الذى يدعونه سيدى ويدعونى عبده هممت أن أسأله فتخونى قوتى .

فضحك شيبوب وقال :

عذب نفسك كما شئت أن تعذبها . وأما أنا فقد رضيت بأنني شيبوب عبد شداد وابن زبيبة . لقد كان أبي من صميم جلدتي وإذا كان قرداً فإني به راض يا عنترة . أذكر منذ كنت طفلا صغيراً أنني كنت أعيش حرًّا في بلادي هذه قبل أن أحمل إلى هذه الصحراء . ولا أزال أذكر أبي وهو عائد إلى البيت يلبس جلد النمر فوق كتفه . نعم أذكر تلك الأيام البعيدة كأنها حلم غامض، وكنت أنعم فيها بحريتي كما تنعم القردة بحريتها . أذكر ذلك كله وأمتلئ كبراً لأنني لم أولد عبداً ولست أحب أن يكون لي أب سوى ذلك الأب الذي جاء بي . وأما أنت فلست ترضى إلا أن تكون ابناً لأحد هؤلاء الجفاة الغلاظ الذين يسومونك الهوان ، فاطلب من شئت منهم من الآباء . وهم أن يمضي في سبيله ولكن عنترة جذبه إليه من ساعده فأجلسه في عنف . فصاح شيبوب قائلا :

— أما إنك لفظٌ عنيف إذ تجذبني هكذا فتكاد تدق عظامي . دع ذراعي فإنك تعصرها عصر كُلاَّب الحديد وما زلت منذ الليلة تحمل عليّ وتعنفني .

فقال عنترة باسمًا :

— لا تؤاخذني يا شيبوب فإنني الليلة سيء النفس وقلبي ممتلىء حقداً . ولكني لا أجد في الناس من ينفس عني سواك . إنك الرجل الذي أثق في عطفه إذا تحدثت إليه ، وآمن جانبه إذا انصرف عني ، وأطمع في

عفوه إذا عنفت عليه . أنت شريكى فى حربى وربيبتى[١] فى منزلى ، وبك أحمى ظهرى . عينك الحادة تبصر لى ما خفى عنى ، وساقك الحمشة[٢] تسعى فى حراستى . فحدثنى واصدقنى . فنحن فى هذه الحياة وحيدان لا يعرف أحدنا إلا أخاه . ولست تجد يا شيبوب فى هذه الأرض من هو أحنى عليك منى ، ولا من يعرف قدرك مثلى .

فوقعت هذه الكلمات موقعها من شيبوب فعدل عن عتبه وصمت حيناً ثم قال :

— لست أحب أن أبعث إلى نفسك مالا تحب يا عنترة فوحق الآلهة جميعاً إن ما يرضيك أحب إلى مما يرضينى . ولقد كنت لا أعرف لى صاحباً حتى ولدت أنت فوجدت فيك رفيق لعبى . ثم كبرت وقوى ساعدك فوجدت فيك أملا جديداً . فلما بلغت مبلغ الرجال وصرت فارس عبس أصبحتَ عدتى وملاذى ، فأنا بك مباه معجب أحس أن ما تبنى من المجد هو مجدى ، وأن ما تنال من السعد هو سعدى . ولست أبالى أنك ابن أمى ، فإننى معك كأننا نسير فى مفازة لا نجاة لأحدنا إلا بأن يسلم صاحبه . ولهذا كنت فى نصحى لك ألتمس أخف الأقوال عليك ، فلا أظهر لك رأيى إلا فى قول عابث يقع من نفسك وقعاً ليناً . ولكنى أظن أن أمرك يوشك أن يصير إلى عقدة لا ينبغى لك ولا لى أن نغفل عن حلها .

---

(١) الربيبة : الطليعة ، الحارث . (٢) الحمشة : الدقيقة الخفيفة .

وعند ذلك سُمع صوت غناء ينبعث من ناحية الخيام ، يحمله النسيم متدفقاً متموجاً كأنه صوت عزيف[1] الجن ينبعث من بطون الفلاة .

فقال عنترة يقطع حديث أخيه :

— أما تسمع هذا الصوت يا شيبوب . إنها ما زالت مع صاحباتها تغنى .

فقال شيبوب : وماذا يكون لحن إذا لم يكن الغناء حيناً والبكاء حيناً ؟

فقال عنترة فى صوت لين : إنه صوتها ، هو صوت عبلة . لست أخشى يا شيبوب أن أتحدث إليك عنها بل يطيب لى أن ألهج معك بذكرها . إن صوتها يقع فى شغاف قلبى ، وكل نغمة منه تسرى فى عروقى ، لا بل إنى أجد فيه حسّاً لا أقدر أن أصفه بهذه الألفاظ التى اعتدنا أن نصف بها الخسيس من شعورنا .

فضحك شيبوب قائلا : إنك تأبى إلا أن تقول الشعر فى كل ما تنطق به عنها ، إننى أرحمك ولا أملك أحياناً إلا أن أعجب منك كيف تنظر إليها . إنك إذا وقفت أمامها تكون كالكاهن إذا رفع يديه بالصلاة أمام وثنه .

فقال عنترة : وأنى لك أن تدرك ما أحسه وأنت لم تقاس مثل حبى ؟

فقال شيبوب : ومالى والحب يا عنترة ؟ إن النساء بعضهن من بعض فليس لإحداهن عندى على الأخريات مزيّة . فما الذى يحملنى على أن أرى فى واحدة ما لا أراه فى سواها ؟ كلهن يرقص ويغنى ويضحك ويثرثر ويأكل ويشرب . وكل منهن تتطلع إلى من يحب غيرها لكى تكيد

---

(١) العزيف : الغناء .

لها وتهزمها . لا فرق بين واحدة وأخرى إلا أن يكون أنف إحداهن أطول من أنف صاحبتها أو أقصر ، أو أن يكون فمها أوسع أو أضيق ، أو أن تكون إحداهن وطفاء[1] الأهداب والأخرى عمشاء .

وسكت الغناء عند ذلك فقال عنترة :

— ماذا كنت تقول يا شيبوب ؟ أعد على قولك فإنى لم أكن أسمعه . امض فى حديثك يا أخى فإنه يقع على سمعى وقوع الندى على العشب الأخضر .

فضحك شيبوب قائلا :

— لن أعيده عليك ما دمت لم تسمعه .

فقال عنترة باسماً :

— امض فى حديثك وإن كان خبيثاً . حدثنى عن نفسى وعن نفسك . ماذا كنت تقول لى آنفاً ؟ أكنت تقول إن أمرى قد آل إلى عقدة لابد أن نحتال فى حلها ؟ فما تلك العقدة التى تخشى أن يؤول أمرى إليها .

فقال شيبوب جاداً :

— إنك تعذب نفسك بهذا الوهم الذى يملكها ، فأنت ترى عبلة بعين غطى الحب عليها ، وأخشى عليك عاقبة هذا الوهم الذى يضللها .

فقال عنترة ساخراً : ومم تخشى علىّ ؟

فقال شيبوب : نعم أخشى عليك . أخشى عليك أهلها وقومها . إنك

(١) الوطفاء : طويلة شعر الحاجب أو العينين .

تحسب أنك منهم وهم لا يرون إلا أنك عبدهم . أخشى عليك أباها مالكاً وأخاها عمراً فهما لا يضمران لك حبًّا . عرفت ذلك ولمسته وسمعته . ولست أكذبك ، إنى كنت أحياناً أتدسس بين البيوت لكى أتسمع الأحاديث عنك ، خوفاً عليك ، مما يدبرونه لك .

أتظن الناس لا يتحدثون عن حبك لعبلة ؟ أما سمعت الفتيات يتضاحكن ويتغامزن وأنت تنشد ؟ لقد كنت أراك وأراهن وأسمعك وأسمع أحاديثهن . وإنهن ليمكرن بك ويقلن فى خلواتهن ما لا تسمع منهن . إن الناس يتحدثون عنك وأنت تحسب أنك تخفى حبك فى ثنايا صدرك . فما اجتمع قوم فى ناد إلا ذكروك وذكروها ، ولكنهم يذكرونك فى همس ليزيدوا من النقمة عليك . يقولون إنك تقول الشعر فيها ، ويقولون إنك قد جعلتها بين الناس حديثاً . ولم أكن هازلا وأنا أقول لك الليلة إن سرك يأبى إلا أن يذيع .

فقال عنترة فى شىء من الغضب :

— وهل يخيفنى أن يعرفوا ؟ لقد كنت أخفى عن الناس ذكرها خوفاً منى عليها لا خشية منهم على نفسى .

فقال شيبوب : وهل غرتك تلك البسمات التى تراها منها ؟ إنها لا ترى فيك إلا عبداً مطرباً . إنها لا تشتهى إلا حديثك وشعرك لأنها فتاة معجبة بنفسها .

فتحرك عنترة فى غيظ وقال فى صوت أجش :

— بل تكذب يا شيبوب ويكذب من يقول مثلها .

فقال شيبوب متردداً :

— وإنهم ليقولون ما هو أقذع من ذلك فيك أنت إذ تتطلع إليها

فقال عنترة فى صيحة مكتومة :

— لا يخفى ذلك على ياشيبوب ، وقد سمعته بأذنى . نعم سمعته بأذنى منذ كنت طفلا . ولقد كانت الكلمات تقع على أذنى وقع الطعنات من الرماح المسمومة ، ألا تذكر كيف كنت أثور بمن يعيرنى بأمى فأثب عليه وأكاد أفترسه افتراساً ؟ ولكن مهلا يا شيبوب ، وكن أنت على الأقل بى رفيقاً . ترفق بى ولا تعد هذه الأقوال على أذنى .

فقال شيبوب هازئاً :

— ليتنى كنت لا أحبك فكنت أمتنع عن كل كلمة تؤذى سمعك ، ولكنى لا أقدر أن أحجب عنك ما عندى . إنى أشفق عليك من عبلة نفسها .

فصاح عنترة : إنك تكذب ! إنك تكذب !

فقال شيبوب فى عناد :

— لا بل أنت الذى لا تريد أن تعرف الحق . إنك تحبها وهذا الحب يحملك على أن تخدع نفسك عنها ولا تريد أن ترى ما أمامك . أتحسب أن عبلة ترضى بك زوجاً ؟ أتحسب أنها تختارك على سادات قومها ؟

لعمرى إنها لو سمعت أنك تخطبها لضحكت قائلة : « لا أريد من عنترة إلا شعراً » .

وكاد شيبوب يمضى فى حديثه لولا أنه سمع أخاه يغمغم بلفظ لم يتبينه ، فسكت حيناً ثم اتجه إليه قائلا : أكنت تقول شيئاً ؟

فلم يجب عنترة بل مضى فى غمغمته حيناً ثم نطق بشعر يمد به صوته فى رفق ورقة :

أعاتب دهراً لا يلين لعاتب ... وأطلب أمناً من صروف النوائب
ولولا الهوى ما ذل مثلى لمثلهم ... ولا رُوِّعت أسد الشرى بالثعالب
سيذكرنى قومى إذا الخيل أقبلت ... تجول بها الأبطال من كل جانب
إذا ما نسونى فالقواضب والقنا ... تذكرهم فعلى ووقعُ المضارب

ولما انتهى من إنشاده اتجه إلى أخيه قائلا :

— أحس كأن ثقلا يهبط على صدرى . إننى أعذرك يا شيبوب فلست تقدر على أن تنظر بعينى ولا أن تحس بقلبى . وقد تكون أسعد حظاً منى ولكنى لا أرضى أن أكون إلا كما ترانى . ماذا كنت تقول لى فقد كنت عنك لاهياً ؟

فقال شيبوب ضاحكاً :

— لن أعيد عليك قولى . إنك تهرُب منى بسمعك كلما ظننت أننى قد وجدت إليك سبيلا ، ولا أملك إلا أن أعجب منك كلما رأيتك

تخضع لهذا الوهم كأنك فتاة حمقاء . أهذا أنت عنترة الذى يملأ معامع الحرب هولا ؟

فقال عنترة فى هدوء :

— أظنك كنت تخوفنى غضب مالك وابنه عمرو وقومهم من عبس، إننى ساخط عليهم جميعاً ولست أخشى أن يكونوا كلهم علىّ غضاباً .

لست أبالى مالكاً ولا ابنه ولا قومه إذا هم علموا حبى ، فلقد كنت أكتمه عنهم حتى لا يصيب عبلة منه شىء . أتخوّفنى بغضبهم علىّ أنا ؟ وحق مناة وآلهة العرب كلها ما أزنهم جميعاً بقطرة من دمع عبلة إذا مسها ما يبكيها .

وسكت لحظة ثم قال : إنها أملى فى الحياة ، ولولا هذا الأمل لما بقيت فوق الأرض يوماً .

فقال شيبوب هازئاً :

— إذن فاحرق كبدك فى تمنى ما لا سبيل إليه .

فقال عنترة فى حزن :

— لست أملك قلبى حتى أصرفه عنها . إنّى إذا رأيتها أضاءت لى الآفاق وإن كانت مظلمة ، وإذا تنسمت ريحها أحسست دبيب السعادة وإن كان الشقاء يكتنفنى . وإذا حدثتها . . . إذا حدثتها يا شيبوب كأن أغاريد الطير تطربنى فى الأسحار ، وإذا سمعت صوتها وقع عندى موقع البلسم على القرحة . إنى لأرقّ للنساء من أجلها ، وأخوض الحروب

لأحمى قومها ، وأطلب النصر لا أريد منه إلا أن أفوز ببسمة منها . وأبذل ما يحرص عليه الناس لأنى لا أعرف شيئاً أحرص عليه غير محبتها . فهى عندى معنى حياتى وغاية آمالى .

وعاد صوت الغناء فجأة وحمله النسيم كما كان يحمله من قبل متموجاً متدفقاً . فقال عنترة :

— اسمع يا شيبوب فإنها تغنى .

وأصاخ بسمعه ينصت إلى الغناء ثم قام خفيفاً وقال مبتهجاً :

— ألا تحب أن نقرب من خبائها لنسمع ؟

ثم جذب أخاه من يده وسارا نحو الخيام ، فلما اقتربا حتى استطاعا تبين اللفظ وقف عنترة فجأة وقال فى صيحة مكتومة :

— لقد صح ظنى يا شيبوب . أما تسمع ؟ إنها تغنى بشعرى .

ثم اندفع مسرعاً بين الخيام فرأى الفتيات والنساء فى وسطها يجلسن فى حلقة حول النار ونور القمر يسطع باهراً . فلما رآه النسوة صحن :

— هذا عنترة .

ووقعت عينه فى عينى عبلة فقامت على استحياء مسرعة إلى خبائها وبنات عمها يتعلقن بأذيالها ليمسكنها وقضى عنترة سائر الليلة مع أخيه على جانب الكثيب ينشده من شعره وقلبه يفيض بشراً .

٣

عاد عنترة مع الركب إلى حيّه عبس فى أرض الشربّة والعلم السعدى وكان يوم عودته موعد العيد السنوى الذى تقيمه القبيلة فى موسم الحج فى شهر رجب احتفالا بالإلهة مناة . ولكن عنترة لم يكن فارغ القلب للعيد فذهب إلى بيت أمه أول شيء بعد عودته ، وكانت زبيبة منصرفة إلى غزلها ، فلما رأته داخلا وثبت قائمة وقالت له وهى تفتح له ذراعيها :

— مرحباً بك يا ولدى ، ما أشد شوقى إلى رؤيتك !

فلم يجب عنترة بل ذهب إلى جانب من الخباء فرمى فيه رمحه وسيفه ، وجلس على فروة والغضب يبدو فى معالم وجهه . فقالت له زبيبة :

— أبك شيء يا ولدى ؟

فنظر إليها عنترة فاتراً ولم يجب ، فاستمرت قائلة :

— أيحزنك شيء أصابك ؟ هل ألمّ بك فى طريقك ما أغضبك ؟ هل لك أن تفضى إلى بما يحزنك لعلى أستطيع أن أخففه عنك ، أو أحتال معك فى صرفه ؟.

فقال عنترة فى صوت أجش :

— وماذا يجديني أن أحزن أو أغضب ؟ بل ماذا يجديني أن تعرفى سبب حزنى وغضبى ؟ لقد كان أولى بك لو عرفت أنك كنت أنت السبب فى كل شقائى .

فتحركت الأم فى قلق من هذه الصدمة المفاجئة وفارت الدموع فى عينيها ، وقالت وهى تحاول أن تتماسك :

— أى ولدى الحبيب فداك نفسى ، لو استطعت أن أذهب عنك الحزن بفقد عينى لكان أحب شىء إلى أن أفقد عينى . ولو قدرت على أن أبذل حياتى لكى أهب لك السعادة لبذلتها راضية سعيدة . أأنا التى كانت سبب شقائك ؟ إذاً فما أعظم شقوتى !

فخضع عنترة وأطرق حيناً ثم قال لها :

— لن يجدينى ذلك كله شيئاً أيتها الأم البائسة . لقد جنيت علىّ كما تجنى القطة على صغارها ، أو الكلبة الجائعة على حمرائها . أما كنت تعرفين أن الوليد الذى تضعينه سوف يعيش عبداً؟ إذاً فما الذى حملك على أن تقذفى بى إلى الحياة لأكون فيها عبداً ؟ أما كنت تقدرين على أن تطرحينى سقطاً أو تكتمى أنفاسى بعد مولدى ؟

وكانت زبيبة تستمع إليه فى دهشة ، متعجبة من قوله ، وصاحت فى ألم :

— إنك تقطع نياط قلبى يا عنترة . فماذا يحملك على كل هذا ؟ ألست عنترة فارس عبس ؟ لقد عقم النساء أن يلدن مثلك .

فقهقه عنترة بصوت مخيف وقال :

— دعى هذا أيتها الأم البائسة ، وخبرينى بالحق عما جئت أسألك عنه . لقد طالما سألتك وأنت تراوغين ولا تريدين أن تجيبى . ولقد جئت

إليك لأسألك مرة أخرى أن تصدقيني حديثك .

فقالت زبيبة مسرعة :

— سلني ما بدا لك يا ولدى فأنا لا أحب أن أكذبك .

فقال عنترة فى مرارة :

— لست أحتمل أن أعيش بعد اليوم فى دنيا تحيط بى فيها هذه الأكاذيب كأنها الإبل المسعورة . إذن فتعساً لهذا السيف الذى أحارب به أعداء عبس لأنه يكون سيفاً عقوقاً .

فقالت زبيبة هادئة :

— لقد عرفت يا عنترة أنى لا أكذب . ولو أردت أن أكذب على الناس جميعاً ما كذبت على ولدى .

أتحسب أننى أعرف أمراً أخفيه عنك ؟ لقد طالما تجسست وأخبرتك بما سمعت . وطالما تبسمت لمن أمقتهم لعلى أظفر منهم بحديث أفضى به إليك . ولقد كنت أذهب إلى عبلة وأمها وأخدمهما لكى أعود إليك بكلمة يطيب لها قلبك . ألست أذهب كل يوم إلى سمية امرأة شداد فأضحكها وأتملق مروة ابنتها لكى أحمل لك ما تقولان وما يقول لهما نساء عبس ؟ ألست أتدسّس . . .

فصاح بها عنترة فى وحشية مقاطعاً :

— دعى هذا الهذر فما أبالى ما يقول كل هؤلاء . تقولين إنك تذهبين إلى سمية امرأة شداد ؟

فقالت زبيبة : نعم أذهب إليها كل يوم .

فقال عنترة متوجعاً : نعم تذهبين إليها كما ينبغى أن تذهب الأمة إلى سيدتها . وما عنترة ابنك إلا العبد ابن زبيبة كما يقولون أيتها المرأة المنكودة .

فتخاذلت زبيبة ومدت يدها تمسح دموعها المتساقطة مطرقة .

فصاح عنترة :

— لا تراوغينى هذه المرة أيتها الأم البائسة وقولى لى صدقاً . أما قلت لى يوماً إن شداداً أبى ؟ أما قلت لى إننى من صلبه وإننى عنترة بن شداد ؟ ألا تذكرين يوم جئت إليك أبكى وأنا صبى أشكو إليك أنهم يعيرونني بك فقلت لا تحفل بهم فإنك ابن شداد ؟

فقالت زبيبة مندفعة :

— نعم أذكر ذلك وهو حق .

فصاح عنترة :

— إنك تكذبين يا مرأة .

ففزعت زبيبة من قوله ورمت بمغزلها فى غضبة مكتومة وبسطت يديها نحوه وعيناها معلقتان فى وجهه وقالت :

— أى ولدى ! إنى لا أزال أذكرك طفلا وأنت تحبو مرحاً ضاحكاً تعبث بالكلاب والحملان وتدفع بها عنيفاً كأنك فتى يافع . وأذكرك

صبيًّا تجبذ[1] فصيل الناقة كأنك قط يداعب فأراً .

وأذكرك فتى تهز الحربة كما كان يهزها خالك وجدك ، أخى وأبى ، هؤلاء الذين عرفونى وعرفتهم ولم يقولوا لى يوماً كما تقول لى « يا مرأة » .

وهذا أنت قد كبرت ياولدى حتى صرت فتى الفتيان وأشجع الشجعان وفارس عبس كلها ، وما أراك تلقانى إلا بأشنع ما يلقى الرجل أمته . أراك تبعدنى وتطرحنى وتخاطبنى هكذا « يا مرأة » ، كأننى لست أمك التى أرضعتك وحملتك عند ما كنت لا تستطيع شيئاً .

ثم وضعت رأسها بين كفيها وأخذت تبكى . فلان عنترة وقال يستعطفها :

— إن قلبى يتمزق والغيظ ينفجر بى .

فقالت زبيبة :

— إنك يا عنترة تدمى قلبى الذى لا يحمل من الأحياء صورة أحب من صورتك . وأراك تنظر إلى كما ينظر إلى هؤلاء كلهم — أبوك وأعمامك وأبناء أعمامك .

فصاح عنترة فى وحشية : تقولين أبى وأعمامى ؟ أتعيدين ذلك على سمعى؟

فقالت زبيبة :

— نعم أبوك وأعمامك . ألم أقل ذلك لك من قبل ؟ إنهم يقولون لى كلما رأونى : قومى يا زبيبة إلى هذا القعب فاحمليه ، أو إلى هذه الشاة

---

(١) تجبذ : تجذب .

فاحلبيها . وما كان ينبغى لك أن تكون مثلهم . فلست أمام نفسى زبيبة الأمة — إننى أنا الحرة الحبشية (تانا) ابنة (ميجو) ، ولن أكون سوى الحرة (تانا) ابنة ميجو .

وكان عنترة يسمع قولها مطرقاً ويزأر زئيراً مكتوماً وتعتريه بين حين وحين هزة تنفضه نفضاً . فلما انتهت أمه من قولها عادت إلى البكاء . فقال عنترة فى شبه صيحة :

— إنك تقولين عن شداد وإخوته إنهم أبى وأعمامى ، ومع ذلك فإن كل من يلقانى منهم لا يسمينى إلا عبداً . ألست أنت التى أتيت بى إلى الحياة وأنت أعرف الناس بمولدى ؟ وحق مناة لو كنت حرة . . .

وما كاد ينطق بالكلمة الأخيرة حتى صاحت به زبيبة فى حنق :

— ويلك يا عنترة ، إنك فظ عنيف ولا تحس لى رحمة . ألا تعساً لك وتعساً لتلك الآلهة التى تقسم بحقها . إننى أمقت قومك وما يقولون وأمقت كبرياءهم وجهلهم ، وأمقت هذه الآلهة الصماء التى يقسمون بها . لقد عرفت قوماً غيرهم وديناً غير دينهم واسماً أحب إلى من هذا الاسم الذى ينادونى به .

فقال عنترة فى قسوة :

— إنما يحزنك أنك زبيبة الأمة ، يحزنك أنك فى قوم تكرهينهم وتكرهين آلهتهم . ولكن لا يحزنك أن تقذفى بولدك بينهم حيث لا يدرى ما يكون اسمه ولا ما يكون محله . خبرينى ما هذا الدين الذى تهرفين به .

ما هذا الدين الذى لم يمنعك من أن تأتى بالولد لتقذفى به فى المهانة ؟

فصاحت زبيبة وهى أشد غضباً :

— حسبك يا عنترة ولا تستوجب اللعن . إنه دين المسيح الذى يعظ الناس ألا يكونوا كهؤلاء الغطارسة العتاة ، ولو خيرت بين الحياة والمسيح ما آثرت البقاء فى الحياة بغير دينى .

وكانت فى كل قولها تشهق شهيقاً مرًّا بالبكاء . ففتح عنترة عينيه فى دهشة وسكن حيناً ثم اندفع فى وحشية فقال :

— أمسكى أيتها المرأة دموعك التى تسحر قلبى ، ودعينى وما أريد فأجيبى سؤالى : أأنا ابن شداد حقًّا ؟

وإنى أعيد قسمى بمناة لكى أملأ قلبك غيظاً وحقداً وغمًّا كما أتيت بى إلى الحياة لا أجد فيها إلا غيظاً وحقداً وغمًّا . أقسم بمناة لكى أجرعك الغصص ، لئن لم تصدقينى لأضعن هذا السيف فى قلبك ثم أديره بعد ذلك إلى قلبى . أأنا ابن شداد حقًّا ؟

فقالت زبيبة بين شهقاتها :

— إنك ابنه . إنك ابنه . وقد قلت لك ذلك من قبل فى صغرك . وما كنت أكذبك .

فصاح عنترة مزمجراً .

— أتقسمين أنك صادقة ؟

فقالت زبيبة رافعة رأسها فى غضب :

— قلت لك إنك ابنه . ولن أقول لك إلا أنك ابنه ، فلن أجعل المسيح مطية لتصديقك . فصدق إن شئت أو كذب وافعل بى ما بدا لك .

فهدأ عنترة وصمت حيناً ثم قال :

— أأكون ابنه ويبعدنى ؟ أأكون ولده ويجعلنى عبداً ويرضى لى أن أكون بين الناس ذليلا يلقانى من شاء منهم قائلا : « يا ابن الزنا » ؟ إننى أطعن أعداء عبس وأدفع عنهم الذل وأتكبر أن أقاسم أحداً منهم فى غنيمة ، ومع ذلك يسمونى عبداً وأنا ابن شداد . أقسم بمناة لئن كان أبى لأحملنه على أن ينسبنى إلى نفسه وإلا كان لى معه شأن تتحدث به القبائل فى نواديها . سأضرب فى الأرض حيث تقذف بى وسأصارع الأسود وأنتزع منها فرائسها ، وسأقطع السبل على كل عابر وأسلب الأموال من كل مالك ، ولن أستقر حتى ألقى منيتى ثائراً حانقاً كما يلقى الكلب العقور منيته .

فتخاذلت زبيبة ومدت يديها فى تضرع وقالت :

— لا تفعل يا ولدى . لا تفعل . لقد كنت أراوغك ولا أقول لك الكلمة التى كنت تسألنى عنها لأننى كنت أخشى هذا . كنت أخشى أن تذهب إليه وتسأله وتخاشنه فلا تعود من ذلك إلا بتلف النفس . إنك منه وهو منك ، وقد ورثت منه عنفه وكبرياءه . ولقد كنت أخشى أن تصطدم به وتقف له وجهاً لوجه فما تقابل اثنان مثلكما إلا انجلى الموقف عن هلاك أحدهما .

وسكتت لحظة ثم قالت بصوت منهدج :

— إنه أبوك يا ولدى ولست أنكر أنه عزيز علىّ ، ولن أرضى أن أفقده كما لست أرضى أن أفقدك . إننى أذكر يوم رأيته كأنه كان بالأمس القريب فاسمع حديثى وصدقنى .

كنت مع الركب أنا ومن معى من نساء وأطفال لا نكاد نرى ما أمامنا من البكاء . فقد جئنا إلى هذه الأرض مع قوم خطفونا من أهلنا كما تخطف فراخ الطير . وكانوا يلقون إلينا بقطع من فضلات الطعام فلا نجد لها شهوة والجوع يقرص أحشاءنا ، حتى كاد الموت يأتى علينا . وكانت جثث الموتى تلقى على جانب الطريق كما تلقى جيف الكلاب ، ولا نجد لأنفسنا حيلة إلا البكاء وتمنى الهلاك . كان أخوك شيبوب عند ذلك لا يزال طفلا ، وكان جرير ابنى لا يزيد على عشر سنوات . أواه !

إننى لا أملك نفسى كلما تذكرت كيف كان ولداى المسكينان وهما يجرران أقدامهما والحجارة تشققها والدماء تسيل منها . وكانت الصحراء المهلكة تمتد أمامنا إلى غير نهاية . وأخيراً هبط علينا أبوك شداد فى جماعة من عبس جاءوا ليسلبوا ركب الطغاة الأنذال الذين جاءوا بنا . وكنا نحن الغنيمة يا ولدى . فأخذنا بنو عبس بعد أن قتلوا الذين كانوا يعذبوننا ، وكنا نتوقع منهم الموت ونتمناه لنستريح من الحياة . ولكن شداداً كان بنا برًّا رحيماً ، وكان بى وبطفلى حفيًّا كريماً . فاختارنى فكنت له أمة ، وكان ابناى له عبدين على عادة العرب من أقدم

الأزمان . وقد أولدنى شداد غلاماً واحداً هو أنت . هو أنت يا عنترة . هذه قصتى يا عنترة أقولها لك ولست ألوم أحداً ولا أحقد على أحد . فإذا كنت قد شكوت أو تألمت فإنما فعلت ذلك من أثر حديثك أنت . إننى لا أحمل لأبيك إلا الولاء والوفاء .

فنظر عنترة إليها وقد هدأت ثائرته وقال ساخراً :

— إذن فهو أبى ؟

فقالت زبيبة فى جد : قلت لك قصتى . لم أنطق فيها بحرف غير صادق فإنى اليوم لا أطمع فى أن أستقبل الحياة . إننى راضية بما أنا فيه لأننى لا أرى لنفسى مطمعاً سوى أن أراكم أمامى . ولقد اعترف بك أبوك يوماً وأنت فتى صغير إذ طمع بعض بنى عبس أن يدعيك فمنعك قائلا : « إنه ولدى » ، وكاد يحارب أبناء عمه من أجلك .

وكان عنترة يسمع قولها شاخصاً ببصره إليها . حتى إذا ما فرغت مدت يديها نحوه واقتربت منه فمسحت على رأسه بيمينها ثم تهانفت[1] وخضع عنترة لها فأحنى رأسه ووثبت من عينه دمعة بادر إليها فمسحها . ثم تخلص منها برفق وقال بصوت خافت :

— لا عليك يا أماه فإنى قسوت عليك . ولقد ألنت قلبى على الرجل بعد وصفك إياه . وسأمضى إليه لأحدثه فى أمرى وأمرك ، فلعله يلحقنى بنسبه ويزيل عنى معرة الضياع . ولن أرضى بعد اليوم أن أبقى فى

(١) التهانف : التهيؤ للبكاء ، وقد يكون معناه أحياناً ضحك المرأة إذا استهزأت .

بنى عبس رقيقاً وأنا من صلب شداد .

ثم وثب واقفاً وقامت أمه تتعلق به قائلة :

— لا تفعل يا ولدى . لا تفعل ذلك أبداً . هذا ما كنت أحاذر أن نفعل منذ كبرت . إنه لن يجيبك إلا بما يجيب به العربى عبده . إنك عبده لأنك منى ، لا لأنك منه . تريث فى الأمر حتى يقضى الله قضاءه ولا تيأس من رحمته .

فقال عنترة فى صرامة :

— لن أدع حديثه حتى أرى ما يكون منه . فدعينى أذهب إليه فإنى لن أثير قلبه . سوف أخضع له فى القول لعله يلين لى . ولست آيساً[1] منه فإنى ألمح فيه أحياناً رقة ومحبة ، ولا أملك قلبى من الميل إليه كلما لقيته . فقالت زبيبة :

— ترفق بى وبنفسك يا ولدى . إنه لن يرضى أن يجيبك خوفاً من قومه أن يعيروه .

فقال عنترة فى دفعة :

— أيعيره قومه بى ؟ لن أقعد عن مطالبته وإن كلفتنى المطالبة حياتى . فإما أن أكون ابنه فيعلن ذلك لملأ الناس . وإما أن أهيم على وجهى فى الأرض الواسعة ابتغاء حريتى .

فقالت زبيبة : تريث يا ولدى بحق . . . بماذا أقسم عليك حتى تطيعنى ؟

(١) أيس بمعنى يئس .

فنظر عنترة إلى وجه أمه جامداً وقال :

— أتخشين علىّ إذا ألححت فى خطابه أن يوقع بى ؟ لن أرفع فى وجهه يدى يا زبيبة فاطمئنى . لقد كنت دائماً أخضع له وأنا أعده سيدى . وسأكون أشد خضوعاً وأنا أعرف أنه أبى .

ثم تخاذل وجلس على حجر عند مدخل البيت ووضع رأسه بين كفيه وغاب فى إطراقة حيناً . وكان يردد أنغاماً خافتة ويهتز اهتزازاً شديداً حتى جزعت أمه عليه ، فاقتربت منه وجعلت تمسح رأسه بيدها حزينة ، حتى مضت ساعة ثم رفع رأسه وجعل يتغنى بأهازيج من شعره وأمه تنظر إليه فى رقة وتستمع إلى غنائه .

ثم وثب قائماً فى عنف وذهب مسرعاً ولم يلبث أن غاب بين البيوت وأهوت زبيبة على الأرض منهالكة تنظر فى أعقابه وهى تئن قائلة :

— ولدى ! ولدى !

٤

كان البدر قد طلع كاملا على الحلة ونشر أنواره على الفضاء عندما خرج عنترة من بيت أمه . وكانت الحلة خالية إلا من عجائز الإماء والضفعاء من الشيوخ والنساء فقد خرج أهلها إلى براح واسع فى ظاهر النجع ليحتفلوا بيوم مناة على عادتهم كل عام .

وسار عنترة مسرعاً يغرز زج[1] الرمح فى الرمال كأنه يطعنها فى حقد، حتى بلغ البراح الفسيح الذى تعودت عبس أن تجتمع فيه للاحتفال بالعيد . وكانت أصوات الغناء والضحك والصياح تنبعث إليه فى ضجة يحملها النسيم إليه عجيبة غامضة كأنه لم يشهد يوماً زحمة مثلها .

ولاحت لعينيه الكثبان المحيطة بالميدان الواسع وجذوع النخيل بارزة فى صدرها فى حلقة عظيمة كأنها سياج يحجب عنه عالماً صاخباً مرحاً يختلف عن عالمه الحزين العابس .

وخطرت له فى سيره صورة عبلة، وخيل إليه أنه يسمع صوت غنائها . أتكون عبلة هناك فى ذلك الجمع العابث اللاهى لا يخطر ببالها ما هو فيه من تنكيد وحزن عنيف ؟ أتكون عبلة مع هؤلاء تضاحكهم وتسامرهم وتغنى لهم وترقص وتصفق مع المصفقين ولا يخطر ببالها أنه وحده يناجى يأسه وكمده ؟

---

(١) الزج : الحديدة فى أسفل الرمح .

وطال عليه السير حتى بلغ موضع الزحام ورأى الجموع الزاخرة تحيط بالنيران فى حلقات كل منها تضم بطناً من بطون القبيلة .

ومر يخبط الأرض برمحه بين الحلقات لا يلتفت إلى أحد ممن كانوا يتواثبون إليه ويدعونه إلى الجلوس ، حتى اقترب من سرادق الملك زهير بن جذيمة .

لم يكن عنترة يعرف ماذا يريد أن يفعل بذهابه إلى شهود ذلك العيد ، فإنه لم يذهب إلى هناك لكى يشرب الخمر مع الشاربين ، ولا لكى يتبارى مع لداته[1] من الفرسان ، ولا لكى ينشد أشعاره كما اعتاد أن ينشد فى مثل ذلك اليوم . لم تكن نفسه فى ذلك اليوم خالية مستبشرة حتى يشارك قومه فى مرح العيد وبهوه وبهجته ، ولكنه مع ذلك قد ذهب إلى هناك وهو لا يدرى ماذا يقصد من الذهاب . أكانت صورة عبلة هى التى تجذبه وتدعوه ؟ أم كان ضيق صدره يدفعه إلى الهروب من الوحدة لعله يجد فى زحمة العيد ما يشغله عن التفكير فى همومه وآلامه ؟ أم ذهب يرجو أن يلقى شداد بن قراد فى ذلك الجمع الحاشد ؟ لقد كانت صورة شداد هى التى تملأ صدره الحانق منذ خرج من بيت أمه . فكان يتمنى أن يراه ليسأله عما كان يسأل أمه عنه ، ويحمله على أن يعترف به ويجعله ولده صريحاً .

لم يدر عنترة حقيقة ما كان يقصد بذهابه إلى زحمة العيد ، فقد كان كل ما فى ذهنه وكل ما فى قلبه غامضاً خافياً مضطرباً .

---

(١) لداته : أترابه ممن هم فى مثل سنه .

ولما اقترب من سرادق الملك زهير بن جذيمة مر بحلقات من فرسان الشباب فهبوا إليه وأحاطوا به ليأخذوه إليهم ، وتنافسوا أيهم يسبق إليه . ولكنه وقف ينظر نحو السرادق العظيم ورمحه مركوز فى الرمل ، وارتسمت على وجهه ابتسامة ضعيفة فيها شىء من السخرية وشىء من الحنق ، والتفت إلى الفرسان قائلا :

— سوف أعود إليكم بعد تحية سادتى .

ثم قهقه وانفلت من بينهم مسرعاً مترنحاً متحدّياً كأنه يقصد قتالا.

ولمح أمام السرادق فتيات عبس وهن يخطرن فى رقصهن وغنائهن عند تمثال الإلهة مناة . فأدار بصره فيهن حتى وقع على عبلة وهى ترفع يديها وتغنى بالصلاة . فخفق قلبه وتمتم قائلا :

— أكل هؤلاء ينظرون إليها ؟

وسمع عند ذلك من ناحية السرادق اسم عبلة يتردد فى صيحة إعجاب فوثب وطعن الرمل برمحه فما هى إلا لحظات حتى كان على خطوة منها ، فالتفتت إليه وتلاقت عيناهما فتبسمت عبلة ومالت برأسها فى خجل وسكتت عن الغناء .

فعلا الجمع صمت عميق مدة لحظة مرت كأنها ساعة طويلة ، وتعلقت العيون كلها بعنترة وكان مظهره ينم عما فى صدره من غضب وثورة . أما هو فلم يبتسم لعبلة ولم يلق إليها تحية واندفع نحو السرادق ولا يزال يطعن الرمل فى كل خطوة يخطوها .

فلما بلغ موضع الملك حياه قائلا :

ـ عمت مساء مولاى !

فقال الملك وفى يده كأس من الخمر .

ـ عم مساء عنترة . لقد كنت أسأل عنك منذ الليلة .

وكان الملك جالساً على تخت منصوب قد فرشت عليه النمارق[1] والوسائد ، وكان الأمراء والشيوخ وأبناء السادة يجلسون من حوله ومن ورائه فى صفوف مزدحمة ، فوق طنافس من صناعة المدائن وشيراز . وكان العبيد يدورون على الجلوس بكؤوس من الفضة ، يصبون فيها خمر الشام والعراق من أباريق أنيقة منقوشة بصور الطير والحيوان .

فنظر عنترة إلى المكان فلم يجد به موضعاً يجلس فيه ، ودار بعينيه فى ارتباك كأنه يبحث عن أحد فى الجلوس ، وفيما هو فى حرجه سمع صوتاً ينادى فى شىء من السخرية قائلا :

ـ ألا تجد لك مكاناً يا عنترة ؟

فنظر نحو الذى يخاطبه وكان عمارة بن زياد ، أجمل فتيان عبس وأكرمهم وأعلاهم حسباً وأشرفهم نسباً .

فقال عنترة فى حقد :

ـ لو أنصفت لقمت لى من مكانك يا عمارة .

وكانت الخمر قد لعبت برأس الفتى السيد فهب من مكانه ثائراً وقال :

ـ تعال فخذ مكانى إذا استطعت يا بن زبيبة .

---

(١) النمرقة : البساط ومثلها الطنفسة .

فقال عنترة ثابتاً :

— لم تأت بجديد على الأسماع ، فكل عبس تعرف أمى كما تعرف أمك . ولكنى هنا أنا وأنت . فتعال إلىّ إذا شئت يا عمارة .

فجرد عمارة سيفه واندفع نحوه ، وأقبل عنترة عليه يدوس الجالسين للوصول إليه ، وهب الناس من كل مكان يحجزون بينهما حتى لقد ألقى الملك زهير كأسه وهب من مكانه صائحاً :

— تريث يا عنترة ، ويحك يا عنترة !

ولكن صوته لم يسمع فى الضجة الشاملة ، وانتقض نظام الميدان كله فاختلط من فيه واضطربوا ، وصاح النساء والفتيات فى فزع ، ومضى حين قبل أن يستطيع شداد بن قراد أن يصل إلى عنترة ويسمعه صوته ويأخذه من يده ، وخرج به من السرادق وغابا بعد حين وراء الكثبان المحيطة بالميدان . ولكن الجمع لم يلتئم بعد ذلك ، ولم تعد النفوس إلى صفائها ، وانفض الناس فى وجوم عائدين إلى منازلهم ، فلم يكن لهم فى ذلك اليوم عيد .

وذهب شداد إلى جانب عنترة يسيران فى صمت حتى بلغا شعباً من شعاب الوادى المؤدى إلى الحلة ، فانتحيا فيه جانباً عند مهبط السيل ، وجلس شداد على قطعة ملساء من الصخر ، وجلس عنترة جاهماً عند قدميه ووضع رمحه تحت رجليه .

وقطع شداد الصمت قائلا :

— أجئت يا عنترة عمداً لتفسد علينا ليلتنا ؟

فنظر إليه عنترة نظرة طويلة ، ثم أرخى عينيه وقال له بصوت عاتب :

— أتلومنى يا سيدى على ما كان ينبغى لك أن تلوم عليه غيرى ؟ أتلومنى لأننى عبدك ؟

فقال شداد : أهذا جواب قولى ؟

فقال عنترة :

— إن القول يسوق بعضه بعضاً . وإن فى نفسى لقولا كثيراً لست أدرى كيف أبدأ فيه وكيف أثنى ، إن عندى لك قولا هو أولى أن تسمعه من هذا الذى تسألنى عنه يا سيدى .

فقال شداد فى دهشة :

— قل ما بدا لك يا عنترة .

فقال عنترة :

— إننى لا أستطيع يا سيدى أن أنكر فضلك ، فأنت فارس عبس وشيخها ، وأنت ملاذ الخائف ومطعم الجائع ومكرم الضيف وناصر الضعيف . وقد حدثتنى أمى عنك حديثاً طويلا منذ كنت طفلا .

قال هذا ثم سكت ونظر إلى سيده شداد .

فقال الشيخ عابساً :

— مالك تسكت يا عنترة ؟ امض فى الحديث وقل ما عندك .

واستمر عنترة قائلا :

— حدثتنى أمى عن رحمتك بها وبرك بأبنائها ، ولكنها قالت لى قولا لم أسمعه منك أنت يا سيدى . هذا هو ما يضيق له صدرى وتثور منه

نفسى . هذا هو ما يدفعنى وما سوف يدفعنى .

فقال شداد جامداً :

— أقالت لك إنك ولدى :

فقال عنترة ثابتاً :

— قالت لى ذلك منذ كنت طفلا . كنت إذا لعبت مع أطفال الحى سبونى بأمى وقالوا لى أقوالا لم أفهمها . فكنت أنتقم منهم وأضربهم فلا يزيدون إلا جرأة ، ويجتمعون فى حلقة يعيرونى ويسخرون منى . وكنت كلما ضقت بهم ذهبت إلى أمى فشكوت لها ، وسألتها عن أبى لكى أفاخرهم به كما يفاخرونى بآبائهم . ولكنها كانت لا تزيد على أن تبكى . ثم قالت لى يوماً إننى ابنك ، فأحسست الكبرياء تملأ نفسى والقوة تسرى فى عروقى ، فكان لا يقوى أحد منهم على الوقوف أمامى . ولكنى كبرت وعرفت وخضت الحروب ، وأردت أن أجد لى مكاناً فى عبس ، فلم أجد أحداً يوسع لى مكاناً . فعدت إلى أمى أسألها عن حقيقة ما قالت لى فى طفولتى ، فكانت تراوغنى وتدافعنى ولم تعد على قولها إننى ابنك حقًّا . ولكنها قالتها لى اليوم . فجئت إلى هنا ولكنى وا أسفاه لم أجد لى بين عبس مكاناً ، ووجدتك أنت هناك تسمع وترى ، وذلك الوغد يسبنى بأمى .

فقال شداد فى جمود :

— وماذا تريد بقولك هذا ؟

فأجاب عنترة فى دفعة :

— لست أريد إلا ما يريده الولد من أبيه إذا كان أباه حقًّا . أعبدك أنا أم ولدك ؟

فقال شداد : ألست أعطيك ما يعطى الأب ابنه ؟ ألست أكرم مكانك يا عنترة ؟ ألست أدخلك بيتى وأجلسك فى مجلسى وأركبك معى وأناجيك إذا اعتزمت مع قومى أمراً ؟ ألست أدعوك إلى حماية الحمى وإلى المشاركة فى الغزاة ؟ ألست أنصرك إذا ظلمت وأدفع عنك إذا ظلمت ؟ ألم تقف الليلة لسيد شباب عبس تلقى إليه سباباً بسباب واعتداء باعتداء فلم أدع يداً تصل إليك ؟ أترى فى عبيدى غيرك من يباح له مايباح لك ؟ فماذا تبتغى منى بعد ذلك إذا كنت أباك حقًّا ؟

فقال عنترة فى رقة : لست أنكر فضلك ، فإنى إذن لجحود . إنك لتكرمنى ولا تجعلنى مثل هؤلاء العبيد الذين يرعون إبلك معى ويحلبون لك النياق ، ويحملون الطعام لضيوفك . وقد كنت تملك أن تجعلنى مثلهم لو شئت وتذل تلك النفس التى تقول أمى إننى ورثتها منك . ألا تقول لى مرة إنك أبى ؟ ألا تقول لى كلمة تقر بها عينى ؟ قل لى هذه الكلمة يا أبى بحق سيفك ورمحك حتى أسمعها من شفتيك أنت .

ومد يديه عند ذلك فى ضراعة ونظر فى عين مولاه .

فقال شداد متبرماً : أما إنك لتلج لحاجة لا أحمدها .

فقال عنترة معتذراً :

لست أحب اللجاجة يا سيدى . فاصرفنى عنك بكلمة أعرف بها

مكانى منك . فإذا لم أكن ابنك لم يكن لى عليك من سبيل . ولكنى لاأحب إذا كنت أبى أن تنكرنى . إنك إذن رجل تسرف فى نفسك وفى هذه الذُّرِّيَّة التى تخرج من صلبك .

فقال شداد مغضباً : حسبك أيها الولد وأمسك لسانك .

فقام عنترة ومد يديه نحوه قائلا :

— أيها البطل لست أحب أن أغضبك . ولكنى لا أرضى لك أن تقذف بى بعيداً عنك إذا كنت من دمك . إن لى فى الحياة حقًّا كما أن لكل رجل فى عبس حقًّا . فكيف أعيش فى قيد الرق إذا كنت ابن سيد الأحرار ؟ وهل تستحق الحياة أن أحياها إذا هى خلت من الحرية ؟ إننى أحب الحرية لأننى أحب الحياة ، وأحب أن أعيش كالناس أقول « نعم » حيناً أو أقول « لا » إذا بدا لى أن أقول « نعم » أو « لا » . أحب أن أكون مثل سائر الناس فى ميزانهم . أعاشرهم وأعاملهم على أننى واحد منهم . أترضى لنفسك أيها البطل أن تعيش عبداً ؟

فصاح شداد فى غيظ :

— أتقول لى ذلك ؟

فقال عنترة : حاشاك أيها البطل أن تكون عبداً .

إنك لتكره أن أقرن بين اسمك وبين الرق فى كلمة واحدة . فكيف بى وأنا أرغم على أن أعيش كل حياتى عبداً ؟ هبك وقعت يوماً فى أسر أعدائك فاتخذوك عبداً ، وجعلوا حولك الأغلال كما فعلوا يوماً بمهلهل ابن ربيعة ؟ أما كنت تؤثر أن تجاهد فى سبيل حريتك حتى تفوز بها

أو تخر صريعاً فى جهادك ؟ فإذا كنت أبى فإن دمك الحر هو الذى يثور فى قلبى .

فلان شداد وقال عاتباً :

— إنك تجرعنى الغيظ بما تلقيه علىّ من هذا القول الذى ينطلق إلى أذنى كأنه جمر الغضا . فقال عنترة فى رقة :

— قلت لك إنى لا أحب أن أغضبك . فلا تغضب على إذا دفعنى يأسى إلى مواجهتك . لست أكره أن توقع بى وتضع سيفك فى صدرى فتذهب عنى تلك الشجون التى تؤرقنى فى ليلى وتذلنى فى نهارى وتجعل حياتى بغيضة إلى نفسى . لست أكره أن أفارق الحياة على يديك فأخلص من هذه السبة التى يرددها الناس كلما وقفت بينهم عند أول غضبة يغضبونها . فهم إذا عجزوا عن مفاخرتى بأنفسهم فخروا على بآبائهم وقالوا لى يا بن زبيبة . ولو عرفت أبى لفاخرتهم به وأسندت إليه ظهرى . حتى أنت يا شداد إذا غضبت على قذفتنى بحممك[1] ودعوتنى عبداً . وقد كنت جديراً بأن تكون أبعد الناس عن إذلالى إذا كنت أبى . فهل كذبت أمى فيما زعمته إذ قالت إننى منك ؟ أم أنت تعلم أنها كانت فى كنفك ثم اختانتك فى ولادتى ؟

فصاح شداد فى غيظ :

— أما قلت لك أمسك لسانك ؟

---

(١) الحمم : الجمر .

فضى عنترة فى عناد :

— لك أن تنكر أبوتى ، ولو فعلت ذلك لوجدت عنك مندوحة يا سيدى فإنى أقدر على أن أضع ذباب[1] السيف فى صدرى حتى يخرج من ظهرى ، أقدر على أن أضرب فى الأرض فلا يعرف أحد مكانى ، أقدر على أن أهيج فى الناس بسيفى ورمحى كما يثور الكلب العقور أو النمر الثائر . ولكنى لا أقدر على أن أدعك تمضى عنى بغير أن تجيب سؤالى . فلا بد لك من إحدى خصلتين : إما أن تقر بأبوتى وإما أن تنكرها .

وكان شداد مطرقاً فى أثناء هذا الحديث متردداً . فنظر إليه عنترة وطمع فى لينه ومضى قائلا :

— قل لى أيها البطل كيف أقيم فى قوم أقاتل أعداءهم ، وأحارب فى غزواتهم ، وأحوز الغنائم من أجلهم ، وأنا فيهم لا أزيد على أن أكون عبداً مسخراً ؟ أأفعل ذلك مأجوراً بطعامى وشرابى ؟ أيكون سيفى إذن جديراً بأن يصاحبنى ؟

وهل أرضى لنفسى أن أكون عبداً لك تملكنى كما تملك هذه الإبل وهذه الخيل ؟ أأرضى بالذل فى نفسى وأنا قادر على حماية غيرى ؟ لئن كنت قادراً على أن أمنع حرمكم وأذود عن حريتكم فإننى لأشد الناس عقوقاً لنفسى إذا كنت أحفظ عليكم كرامتكم وأهدر كرامتى ؟

---

(١) ذباب السيف : حدّه .

ـ أتمنّ علينا بحمايتك ؟

فأجاب عنترة :

ـ لست أمنّ عليك ولا على أحد بحمايتى . ولكنى أقول الحق الذى لا تستطيع أنت أن تنكره . إننى أغزو وأتقدم الصفوف لأقتحم جيش العدو أول الناس لتسيروا ورائى . وإنى لأجرؤ على لقاء كل فارس يتحاماه الأبطال من سادتكم . وإنى لأغنم الغنائم لكى تقسموها فيما بينكم ، فإذا منتم على بجزء منها جعلتم لى نصف سهم ورأيتم فى هذا فضلا واعترافاً بحقى . وإنى لأبذل ما فى يدى تكبراً عن المال إذا حرص عليه كرامكم ، وأعف عن الحرم تساميا عن الدنايا لا عجزاً عن خيانتكم . ولست أريد بهذا القول منًّا ولا فخراً بل هو الحق الذى تعرفه . فإذا كان هذا يغضبك فقل لى إنك غاضب منه فلا أعود إلى ذكره ، وحسبى أن أباعد بينى وبينكم فلا أكلفكم من أمرى مشقة . ولكنى أحب منك أن تجيبنى عما سألت فإما أن تنكرنى وإما أن تعترف بى .

وكان شداد فى أثناء هذا القول مطرقاً وقد وضع رأسه بين يديه صامتاً ، فقام عنترة ووضع يده على كتفه فى رفق وقال له بصوت لين :

ـ أما زعمت مرة أنك أبى ؟ لقد حدثتنى أمى فى ثنايا قصتها أنك اعترفت بى يوماً إذ طمع أحد بنى عبس فى أن يحوزنى ، فمنعتنى وقلت إننى ابنك . ألم تقل ذلك يوماً يا سيدى ؟ أما كدت تقاتل أبناء عمك عندما أرادوا أن يدّعونى ؟ كذّب هذا إذا شئت بل كذب نفسك إذا استطعت أن تقول كذباً .

وما كاد شداد يسمع هذه الكلمة حتى رفع رأسه ووثب قائماً ولمس مقبض سيفه وقال فى صيحة عنيفة :

— أتقول لى هذا القول أيها العبد الشقى ؟ وحق مناة واللات والعُزّى ما صبرت على أحد صبرى عليك ، وأنت منذ الليلة تقرّعنى وتعنّفنى . ولست أدرى ما الذى يمنعنى من سفك دمك أيها العاق الجاحد ؟ فهل أطمعك حلمى عنك ؟ أم قد غرك أننى وقفت دونك وأنت تشمخ بأنفك على سادتك ؟ إنها لنقيصة أحسها فى نفسى أن أرق لك كلما هممت بأن أغمد هذا السيف فى أحشائك .

فنزع عنترة سيفه من حمائله ورماه بعيداً عنه ، وفتح جيبه[1] فكشف عن صدره الواسع وقال بصوت أجش :

— هلم فأغمد سيفك فى صدرى ولا تكتم غضبك علىّ . فإنك إن فعلت خففت عنى ثقل ما أحمل فى هذه الحياة . بل إننى أحرضك على قتلى ، فلست أريد أن أحيا فى العبودية التى تريدنى عليها . اقتلنى وأنت هادئ النفس مطمئن لأنك تريحنى من شقائى .

فأدار شداد عينيه عنه وعاد إلى الصخرة فجلس عليها صامتاً وهو يلهث مما فى صدره من الغيظ ، وبقى حيناً ساكناً ثم تحرك وقال بصوت فيه رنة العتاب .

— ألا تعلم أن هذا الأمر لا أملكه وحدى ؟

فصاح عنترة كمن أصاب انتصاراً :

---

(١) جيب القميص : طوقه .

— إذن فأنت تعترف بى ؟

فقال شداد فى حزن :

— لست أنكر أنك ابنى .

فصاح عنترة فى حماسة :

— لقد قلتها ، هذا حسبى منك يا أبى . قل ما شئت بعدها وافعل ما بدا لك فأنت أبى .

وذهب إليه فمال على رأسه فقبلها .

فقال شداد فى حزن :

— لقد علمت يا عنترة أننى آثرتك منذ كنت طفلا ، وحنوت عليك وأمنت إليك . ولقد علمت كيف كنت أعادى أعداءك حتى كاد قومى ينبذونى . وكيف وقفت دونك حتى باعدنى إخوتى وبنو عمومتى . ولكنى إذا اعترفت بك على ملأ الناس لم يرض أحد منهم بك ورأوا أننى ألحقت بهم المعرَّة بانتسابك .

فقال عنترة :

— أتكون المعرَّة أن تنسب إليهم عنترة ؟

فأطرق الشيخ واجماً ووضع رأسه بين كفيه وقال :

— أمهلنى يا عنترة حيناً ولا تقسُ على . أمهلنى حتى أمهِّد لأمرى وأتوسّل إلى قصدى . ولن أفرِّط فيك أبداً فقد عجز الأحرار عن ولادة قرينك .

فقال عنترة فى نغمة ساخرة .

— فأنا إذن عنترة العبد حتى يرضى كل هؤلاء ؟

فقال شداد :

— تريث بى حتى أحملهم على رأيى . تريث يا عنترة ولا تعد بى إلى حديثك هذا . وتعال أحدثك الساعة عن أمر كنت أود أن أبدأ به فى حديثك .

فقال عنترة فى حنق :

— وما شأنى بالأحاديث يا سيدى ؟

فقال شداد :

— إنه حديث كنت أحب أن أفضى به إليك آنفاً :

فقال عنترة فى صرامة :

— لأكونن العبد حقًّا إذا رضيت أو سمعت شيئاً .أما وقد أبيت يا سيدى إلا أن أبقى عبداً حتى يرضى قومك ،فلن أكون لك إلا عبداً . سأعتزل هذا الحى ، وسأقنع منك بما تعطى . سأذهب إلى مراعيك لأسوق إبلك وأرعاها .سأبعد عن الناس فلا أجالس الأحرار أبداً ، وسأبعد عن الحروب فلا أحمل سيفاً ولا رمحاً . ولكنى قد عرفت أنك أبى فليس لى أن أتهم زبيبة أمى . وسأرضى عن حياتى فلن أطعن قلبى بيدى .سأبقى حيًّا فإن لى أملا لايزال يحملنى على الحياة .ولن أحس بعد اليوم ذلاً فى قرارة صدرى . فأنا عنترة الحر ابن شداد بن قراد .

ومال يأخذ سيفه ورمحه فى هدوء فقال له شداد :

ـــ أذلك الذى أسمعه عنترة ؟

فصاح عنترة : نعم هذا عنترة العبد . هذا عبدك يا شداد بن قراد . سأذهب إلى البر لأرعى إبلك وأحلب نياقك وأدفع الذئب عن غنمك . سأجعل رمحى عصًا أسوق بها الإبل وسأجعل سيفى حلية أزين بها صدرى ، فلا شأن لى بالغزو بعد هذا ولن ينبغى لى أن أقف بين الأحرار .

وإذا بدا لك يوماً أن تنادى عنترة فلا تدعه إلا لكى يحمل لك قعباً من اللبن ، أو لكى ينحر لضيفك جزوراً . وستجدنى لك كما شئت عبداً خاضعاً . لن أملك قلبى من محبتك لأنه لا ينكر أبوتك . سوف أكون عبدك أخفى عنك طربى وغضبى . وسوف أدير عينى إذا نظرت إلى حتى لا تلمح وميض حقدى . وسوف لا أجهر بذات نفسى تحت سمعك ولا أتحدث عنك إلا من خلف ظهرك ، فإذا قربت منى فلن تسمع منى إلا ألفاظ الوفاء والولاء . هذه شيم العبد فلا تنتظر منى سوى شيم العبد ، واقنع بهذا منى يا بطل عبس وكريمها . يا سيدى شداد بن قراد . ها أنذا أخضع لك وأدعو مناة أن تحفظك من سيوف الأعداء ، وها أنذا أقبل قدميك تذللا ومهانة .

ولما قال عنترة هذه الكلمة أهوى إلى قدمى أبيه فجأة فقبلهما ، ثم نهض مسرعاً وذهب كأنه يهرب من عدو ، حتى اختفى وراء الثنية وخرج نحو الصحراء . وجلس شداد ينظر فى أعقابه مدهوشاً ونور البدر الساطع يخيل إليه أنه يهيم فى حلم ثقيل .

٥

خرج عنترة من الشعب هائماً على وجهه لا يدرى أين يذهب . ولم يلتفت إلى ناحية الحى كأنه كان يكره أن تقع عينه على الحلة التى تضم الغطارسة[١] الذين يناصبونه العداء ويضمرون له الحسد ويتنكرون له . ولكنه تذكر عبلة التى ناط بها أمله وعلق عليها كل سعادته ، فكانت صورتها تمثل أمامه بعيدة عنه بعد النجم عن السارى فى الصحراء . ومضى فى سبيله تحت نور البدر الكامل تسوقه قدماه إلى حيث يبعد عن الموطن الذى لا يجد فيه إلا الهوان والغيظ والظلم ، وإن كان لا يدرى إلى أين يذهب فى تلك الأرض الواسعة ، التى كانت تبدو أمامه ممتدة إلى غير نهاية . وكانت السباسب تعلو وتهبط كأنها لجة جامدة تثور بها عاصفة هوجاء ، ولا يسمع فى الليل الساكن صوتاً سوى صفير بعض حشر الأرض ، أو نباح كلب عند بيت منعزل فى وادٍ بعيد .

وكان يخيل إليه مع هذا السكون أنه يقتحم زحاماً شديداً صاخباً مضطرباً لما كان فى قلبه من ثورة عنيفة . وما زال يضرب فى شعاب الصحراء تلك الليلة يسرع فى خطاه ويطعن الأرض بزج رمحه فى حنق مع كل خطوة يخطوها ، حتى طلع عليه الفجر وهو مشرف على الوادى

(١) الغطارسة : جمع غطرس أى المتكبر الظالم .

الفسيح الذى كانت إبل شداد ترعى فيه . لقد طالما أقام فى ذلك الوادى منذ نشأ ، فكان فيه ملعبه ومركبه ، وفيه موضع لهوه وأسماره . كان عنترة منذ نشأ يرعى إبل شداد فى ذلك الوادى مع سائر العبيد يصارعهم ويسابقهم ، ثم كان فيه وهو فتى يبارى أصحابه ويطاردهم على متون الخيل . فى تلك الأرض عرف أول ما عرف من الحياة ، وفى تلك الأرض شهد أول ما شهد من مباهجها ، وأحس أول ما أحس من همومها . لقد كانت مناظر ذلك الوادى الفسيح منذ صباه تحرك قلبه وتملؤه بهجة ، وكانت مراعيه فى الربيع تبعث فيه النشوة وتوحى إليه بالغناء . وكان كلما ضاق صدره بقوله لا يجد ما يفرج كربته إلا أن يلجأ إليه فيجد فى براحه وجماله وعزلته ما يعيد إليه اطمئنانه ويرد إليه ثقته بنفسه .

ومنذ عاد إلى ذلك الوادى العزيز أقبل عليه يجول فى أنحائه ، يجد أكبر العزاء فى صحبة الإبل والخيل ، وفى الخروج إلى صيد الوعول والظباء ، أو الإيقاع بالذئاب والضباع . ونسى أو كاد ينسى أرض الشربة والعلم السعدى حيث خلف قومه من عبس فى حلتهم المضطربة بالأهواء ، لولا خطرة كانت تخطر على قلبه من عبلة ، فيحاول أن يبعدها عن خياله فلا تزال تعاوده حتى تغلبه فيسبح مع الصورة الحبيبة فى عالم حزين يكاد يخيم اليأس عليه .

هكذا قضى أيامه ولياليه هائماً فى النهار بين الشعاب ، سابحاً فى الليل بين الشجون ، وهو فى كل لحظة تمر به يزداد حقداً على قومه

الذين يزدرونه ، وعلى أبيه الذى يظلمه وينكره ويأبى أن ينسبه إليه مع أنه يعترف ببنوته .

وأقبل على الخمر يحاول أن يجد فيها ما ينسيه حب عبلة وحقده على عبس ، وظلم شداد ، ولكن الخمر كانت إذا تسلطت عليه لا تزيده إلا وجداً وحنقاً وحقداً . حتى لقد حال لونه وأخذ الضعف يدب إليه وصار يؤثر الانفراد والبعد عن سائر من هناك من الناس .

وكان فى صباح يوم من الأيام راكباً على فرسه عُرْياً بغير رسن[1]، يملأ صدره من هواء الربيع العليل ، وكانت الشمس الباسمة ترسل شعاعها رفيقاً فوق المروج الخضراء . وكانت السحب تزين السماء بقطع بيضاء كأنها قطيع من وعول نجد العصماء . وكانت الأرض لا تزال رطبة من أثر مطرة جود غسلت الرمال وبللت الحشائش وجلتها بقطر يلمع فى نور الصباح كاللؤلؤ ، وكان العرار يبسم فوق القيعان بنوره الأبيض ويبعث مع النسيم نفحاته العطرة .

وكان كلما وقعت عينه على منظر أنيق تذكر عبلة ونازعته نفسه أن ينزل عن كبريائه ، ويعود إلى الحلة أو يلم بها إلمامة قصيرة ، لعله يفوز بنظرة منها أو ينعم لحظة بسماع صوتها .

وسمع فى سيره وقع حوافر فرس يأتى من ورائه مسرعاً. فانزوى فى ركن من جانب الوادى ليرى من يكون ذلك ، فرأى بعد حين أخاه شيبوب

(١) الرسن : الحبل (وهو الزمام الذى تقاد به الدابة) .

يقصد الربوة التى اعتاد أن يجلس فوقها مشرفاً على الوادى .

فهمز فرسه وانطلق نحوه وكان لا يتوقع مجيئه ، ووقع فى نفسه أنه آتٍ إليه بشىء خطير . ولما صار قريباً منه ناداه فى لهفة .

— مرحباً بك يا شيبوب .

ثم وثب عن ظهر الفرس وفتح له ذراعيه .

فأقبل إليه أخوه شيبوب وعانقه فى شوق ثم قال له :

— إلى أين كنت سائراً ؟

فقال عنترة :

— لست أعرف لنفسى غاية أقصد إليها . فيم جئت أنت ؟

فتبسم شيبوب وقال :

— إنما جئت لأراك .

فنظر إليه عنترة فى شك وقال :

— إن وراءك لأمراً .

فقال شيبوب ولا يزال باسماً :

— إنك لتحس ما فى نفسى قبل أن أنطق به . صدقت فقد جئت إليك بحديث .

وسكت لحظة ثم قال :

— كان الحى بالأمس يزخر بمن فيه .

فقال عنترة فى صيحة مكتومة .

— فهل من جديد ؟

فقال شيبوب :

— ونحر مالك بن قراد عشر جزر[1] .

ثم سكت .

فصاح عنترة :

— امض ، وما قصة هذه الجزر ؟

فقال شيبوب :

— كانت وليمة عظيمة لعمارة بن زياد .

فصاح عنترة فى صوت مخنوق :

— عمارة بن زياد !

فقال شيبوب :

— ذهب عمارة يخطبها .

وكأن شيبوب ألقمه بهذا اللفظ حجراً . فلم ينطق عنترة بجواب بل وقف ينظر إلى الفضاء مبهوتاً .

فقال له شيبوب فى رفق :

— املك نفسك يا عنترة . لقد كنت من قبل أحدثك فى خفة وفكاهة لأننى أعرف كبرياءك ولا أحب أن أثيرها . ولكنى آت إليك اليوم لأحدثك جداً ، فإنى لا أرى مجالا لخفة ولا فكاهة . أحب أن

(١) جزر : جمع جزور وهى الناقة المجزورة .

أحدثك حديثاً يقطر جداً .

فأطرق عنترة ساهماً وجعل يخرق الأرض برمحه كعادته .

فقال له شيبوب :

— إذا شئت مضيت معى إلى ناحية فإنى متعب من الركوب .

وذهب نحو جانب كثيب فهد لنفسه مجلساً وذهب عنترة وراءه يسير بطيئاً . فلما اطمأن بهما المجلس قال شيبوب :

— هذا مالك بن قراد يريد أن يختار لابنته زوجاً . وهو من هؤلاء العرب الذين تعرفهم . فلا مفر لهم من أن ينظروا إلى الناس بأعينهم لا بأعين غيرهم . وقد جئت أسعى إليك بهذا النبأ قبل غيرى حتى لا تركب الشطط فى أمرك .

فقال عنترة :

— وأى شطط تعنى ؟

فقال شيبوب : لقد عرفت أنك سوف تكره فعل مالك . وأنك قد تطيع هذا الوهم الذى يضل بك فتحسب أنه قد يرضى بك لابنته زوجاً .

فقال عنترة فى صوت أجش :

— دع ذلك وقل لى ما تريد أنت . لا تحدثنى عن نفسى .

فقال شيبوب :

— لم أجئ إلا لأحدثك عن نفسك . وإنى أعيد عليك ما قلته لك

مرة بعد مرة . إنك تخدع نفسك يابن أمى وتجرى وراء سراب تريد أن تروى به ظمأك . فهل لك أن تفكر فى أمرك وتحكم فى الأمور بعقلك ؟

فأطرق عنترة حزيناً ثم قال :

— إنك تريد أن أحكم بعقلى وأن أفكر فى أمرى . تريد أن أعترف بأننى عنترة العبد الذى لا يليق به أن يتطلع إلى عبلة .

فقال شيبوب فى رقة :

— إنك بغير شك فارس عبس ، وإنك لجدير بأن تكون سيدها . ولكن قضاءك قد ظلمك وجعلك حيث أنت . ولست بأول رجل ظلمته الحياة .

فانتفض عنترة قائلاً :

— وما لى أرضى بظلم الحياة يا شيبوب ؟ وما الذى يقيدنى حتى أقيم على الخسف وأرضى بأن أبقى عبداً ؟ وما الذى يحملنى على أن أحكم بعقلك أنت فى أمرى ؟ ليس الذى تريد منى حكم عقلى أنا يا شيبوب بل هو حكمك . أما أنا فإنى لن أرضى لنفسى إلا أن تكون حيث ترضى .

فقال شيبوب هادئاً :

— وماذا تملك يا أخى ؟ هل تملك أن تحجر على مالك حتى لا يزوج ابنته بمن شاء ؟

فصاح عنترة :

— ولكنى أحب عبلة . أحبها حباً ملك على عقلى فلا أفكر إلا فيها ،

ولا أحيا إلا من أجلها . لقد قنعت أول الأمر بالرق لأننى كنت قريباً منها . ولقد رفضت اليوم ذلك الرق لأنه يبعدنى عنها . أحب عبلة حبًّا لا يستطيع مالك ولا غير مالك أن ينزعه من بين ضلوعى ، ولن يستطيع أحد أن يجعلنى أرضى بأن يتزوجها غيرى .

فقال شيبوب :

— إذن فحدثنى ماذا أنت فاعل لتحول بين مالك وبين رضائه بعمارة .

فقال عنترة فى حرارة :

— لست أدرى بم أحدثك يا شيبوب ، فأنت تذكرنى بكل آلامى وكل شقائى . تذكرنى بأنى لا أزيد على أن أكون عبداً ولا أستطيع أن أمحو صورتى التى تقع فى عيون قومى . تذكرنى بأننى لن أجد أباً ينصرنى ولن أجد نسباً يمهد لى سبيلى . بل إنى لن أجد المال الذى يعيننى على بعض أمرى . ولكنى يا شيبوب مع هذا كله أملك شيئاً واحداً وهو نفسى التى لا ترضى . وسأكون فى الموضع الذى أرضاه وإن كان ذلك قسراً . إنك تحدثنى عن مالك وعن قومى فلم لا تحدثنى عن عبلة نفسها . إنك لم تسمع نجواها كما سمعتها ، ولم تعرف حقيقة نفسها كما عرفتها ، فلا تواجهنى بهؤلاء فلست أعرف منهم أحداً . وإنما أحب عبلة وأعرفها .

فقال شيبوب فى عناد :

— أتحسبها ترضى بك وتدع عمارة بن زياد ؟

فتحرك عنترة فى غيظ وقال :

— إنك تتحدث كأنك أحد أعدائى .

فقال شيبوب فى رقة :

— لا تذهب بك الظنون يا عنترة مذاهبها . فإنك تعرف مقدار حبى لك وحرصى على خيرك . دع عبلة وقل لى أتحسب مالكاً يزوج ابنته لك ويدع عمارة بن زياد ؟ ولو كان أبو عبلة غير مالك أتحسب أنه يفعل هذا ؟ إنك لن تجد أحداً غيرى يحدثك بمثل قولى ، ولكنى لا أحب أن أكتم عنك نأمة[1] فى نفسى .

وكان عنترة يحاول أن يمسك غضبه ولمح شيبوب علامات ذلك الصراع بينه وبين نفسه ، فقال له فى عطف :

— لا تحنق على لما أقول يا أخى . فوحق مناة إنى أشد حرصاً عليك منى على نفسى . ولو كان الأمر لى لعرفت أن قدرك أعلى من كل قدر . فأنت عندى أكرم من هؤلاء جميعاً وأشهم نفساً . وإنك لحامى حماهم وسيد فرسانهم وأنت أجمل عندى من أجملهم .

فقال عنترة وقد ألانه قول أخيه :

— لست أشك فى مودتك وحرصك على خيرى . ولقد صدقت إذ قلت إن مالكاً لا يلام على رضاه بعمارة زوجاً لابنته ، ولو كنت فى مكانه لما رضيت إلا بما يرضى ، ولكن ما بال قلبى وعبلة ؟ إننى أحبها ولا أقدر أن أحيا بغيرها . ولو ذهبت لغيرى لكان فى ذلك قتلى . فليس

(١) النأمة : الصوت الخفى .

لى إلا أن أركب الوعر وأن أقدم على كل خطر ، إذ ليس فى كل ذلك إلا الموت وهو فى كل حال ينتظرنى .

وصمت لحظة ثم قال :

ـ وما بال شداد يأبى على كرامتى ؟ لقد علمت أنه أبى . لقد قالها لى منذ يوم مناة :

فقال شيبوب :

ـ ألقيته فى ذلك اليوم ؟!

فقال عنترة :

ـ نعم لقيته ، ثم خرجت بعد أن قضيت معه صدر الليل .

فسكت شيبوب حيناً ثم قال :

ـ لقد كنت يوم مناة عنيفاً .

فقال عنترة فاتراً :

ـ وما الذى لم يعجبك من أمرى ؟

فقال شيبوب :

ـ أما تذكر ساعة وقفت أمام عبلة ؟ أما تذكر كيف نظرت إليها وكيف نظرت إليك ؟ أما تذكر أنها سكتت عن الغناء ، وكيف خيم الصمت على كل الجمع فى الميدان ؟

فقال عنترة :

ـ أذكر ذلك كله يا شيبوب كأننى لا أزال فيه ، ولكن ما بالك

تذكرنى بهذا ؟

فقال شيبوب :

ـ أذكرك به لأننى سمعت حديث الناس فى جهرهم وهمسهم . سمعت ما قالوه على ملأ وتجسست على ما قالوه فى الخفاء . لقد باتت عبس تتحدث عنك وعن عبلة وما زالت تتحدث عنك وعن عبلة . لقد كانوا من قبل يسمعون شعرك فيقول بعضهم « هذا فى عبلة » ويقول بعضهم « هذا فى غير عبلة » . ويزعم آخرون أنه من عبث الشعراء . ولكنك فى ذلك اليوم قلت للجميع « إنها عبلة . إنها عبلة » .

فأطرق عنترة حتى ظن شيبوب أنه قد قسا عليه فقال :

ـ ولكنى بعدت بك عن مسيل القول يا عنترة . قل لى كيف حدثت شداداً يوم مناة :

فقال عنترة فاتراً :

ـ حدثته واعترف بى .

فقال شيبوب :

ـ ولكن أتحسب أنه ينصفك ؟ أتحسب أنه يعترف بك على ملأ عبس ؟

فقال عنترة :

ـ لئن لم ينصفنى وأنا ولده لكان لى ظالماً .

ثم جعل ينكتُ الرمل برمحه فى حنق .

فقال شيبوب :

— أراك لا تدع هذا الوهم وإن كلفك ركوب كل وعر .

فقال عنترة :

— إذا كنت بين قوم لا ينظر كل منهم إلا إلى نفسه فلا حرج على إذا نظرت إلى نفسي . إن هؤلاء يدعونني إذا اشتدت حولهم الكروب ، ويلقون إلي بالسيف لأذب به عنهم وأحمي حماهم . فلأحاربنهم بهذا السيف انتصافاً لنفسي . لأحاربن شداداً إذا ضن على باسمي ، ولأحاربن مالكاً إذا وقف بيني وبين حبي . ولأحاربن عمارة إذا تجرأ على أن يسلبني حياتي . لأحاربن لأحاربن لأحاربن !

وصمت لحظة ثم وثب قائماً وقال :

— هلم يا شيبوب فإني عائد إلى الحي معك . إنني لن أطيق البقاء هنا .

ولم يستطع شيبوب أن يعيد عليه القول فقد انطلق بجواده ولم يجد شيبوب بدّاً من أن يركب ويلحق به عائداً إلى منازل عبس .

٦

أوقد عنترة فى الحلة نار الشحناء منذ عاد إليها . فما كان يمر به يوم بغير أن يثير خصاماً أو يهيج قتالا بينه وبين آل عمارة بن زياد . وأرادت عبس أن تخرج إلى غزو طيئ فلم يخرج معهم ، وسارت عبس مع الملك زهير بن جذيمة فلم يتركوا فى الحى إلا طائفة قليلة لحراسة المنازل وكان أمير الحامية شداد بن قراد .

ورأى عنترة الفرسان وهم يخرجون من الحى متجهين إلى أرض طيئ ، وكان قلبه يثور عليه ويتحرق من القعود عن القتال . ولكنه مع ذلك قاوم ميله وأصر على البقاء تشفياً من قومه الذين لا ينصفونه ولا يزيلون عنه وصمة الهوان . فكان يخرج كل يوم يجول فى كثبان الصحراء ليفرج عن نفسه كربتها ، ثم يعود فى المساء إلى خيمته ليقضى بها الليل ، فتضيق نفسه وحشة وكرباً ، فيخرج إلى الفضاء فى ظلام الليل أو فى نور القمر لعله يجد فى انطلاق الجو ما يخفف من وحشته وكربته .

ولم يستطع أن يلقى عبلة طوال تلك الأيام ، فإنها منذ خطبت إلى عمارة ضرب عليها الحجاب ، فكانت لا تخرج إلى موارد الماء كما اعتادت أن تخرج ، ولا تزور أترابها فى بيوتهن بل كن يأتين إليها لزيارتها حتى لا يراها عنترة . هكذا أمر أبوها مالك وأخوها عمرو قبل أن يرحلا مع

الجيش ، فقد أنفا مما سمعا من أحاديث الناس عنها .

وخرج عنترة يوماً على عادته ليجول جولته ، فوقف على ربوة ينظر إلى الحى من بعيد و يحدث نفسه عما تنطوى عليه الأخبية المرصوصة فى وادى الجواء . هناك كانت عبلة فى كسر بيت من البيوت لا يدرى فيم تفكر ولا فيم تأمل . أكانت راضية عن زواجها من عمارة بن زياد ؟ لقد كان عمارة فتى عبس وابن سادتها . كان أكرم الناس حسباً وأعلاهم نسباً وأجملهم صورة وأسخاهم يداً ، حتى لقد عرفه الناس بعمارة الوهاب . أكانت عبلة راضية بزواجها منه ؟

كان عنترة يحس عند ما يتمثل صورة ذلك الشاب . وصورة عبلة إلى جانبه أن لهيباً يتقد فيما بين جنبيه وأن الضوء يظلم أمام عينيه . ولكم خيل إليه وهمه المضطرب أن يهوى بجواده إلى بيتها فينتزعها منه ويفر بها إلى حيث لا يراهما أحد بعد ذلك ويقف دونها مقاتلا . ولكنه كان يعود إلى نفسه لائماً لها على ما تخيله فى الوهم . فما كان ليجرؤ على فعل يجر المشقة عليها أو يدخل الهم إلى قلبها .

فكان يقنع بأن ينظر من بعيد إلى الشعب الذى يحوى خباءها ويقضى الساعات مغنياً بالشعر الذى يتحرك به خاطره من ذكرها .

ووقف على رأس الربوة منشداً :

أعاتب دهراً لا يلين لعاتب وأخفى الجوى فى القلب والدمع فاضحى
وقومى مع الأيام عون على دمى وأصبحت فى بر من الأرض نازح

وقد هان عندى بذل نفسى رخيصة ولو فارقتنى ما بكتها جوارحى

وما كاد يتم إنشاده حتى طرقت أذنه صيحة عائلية خرجت كأنها هزيم الرعد انطلق فجأة فى الفضاء . فنظر حوله فإذا به يرى خيلا تقبل نحو الوادى سابحة فوق الرمال كأنها سرب من الطير . وما هى إلا لحظات بعد ذلك حتى خرج من جوانب وادى الجواء فرسان عبس وكانوا هناك على ترقب لصد العدو . وغمر الغزاة ساحة الوادى وتفرق فوارس عبس بينهم يدافعون ، ولكنهم كانوا قلة لا يكادون يثبتون أمام العدو فى مكان . فما هى إلا ساعة حتى كان العدو يحارب فرسان عبس عند فم الشعب ويكاد يحطم مقاومتهم العنيفة .

وتحركت نفس عنترة إلى القتال مراراً وهم أن يهبط من الربوة لكى ينصر قومه ، ولكنه كان فى كل مرة يغالب نفسه ويمانعها .

وانفرط عقد العبسيين بعدحين ، فصاروا يتدافعون ويتزاحمون عند فم الشعب فى ذعر ، وكلما اتجهوا وجهة وجدوا العدو يسد سبيلهم إليها فيرتدون خفافاً وهم لا يبصرون ما دونهم إلا بعد أن يصطدموا به . وتفلّت الأمر من أيديهم حتى صارت رحى المعركة تدور بين حطام البيوت المقوضة . فكان فرسان عبس يرتدون خطوة بعد خطوة فيخبطون نساءهم وأطفالهم فى عماية القتال . والصياح والبكاء من ورائهم يعلو على ضجيج القتال . رأى عنترة ذلك كله من وراء العجاج الثائر وقلبه يثب فى صدره ، ولكن حنقه كان يكبح غضبه كما تكبح الشكيمة الفرس

الجموح . فكان يئن كلما رأى منظر الهزيمة الطاحنة ، ويزبجر كالوحش الجريح ، ولكنه حمل نفسه على البقاء فى مكانه قسراً .

ثم خيّل إليه أن المعركة قد بلغت إلى قريب من دارعبلة . ولاحت له صورتها كأنه يراها تحت سنابك الخيل ، أو كأن فارساً من طيئ قد عدا عليها فأخذها أسيرة لكى يتخذها أمة له كما أخذ شداد أبوه زبيبة أمه من قبل . فلم يملك نفسه واندفع نازلا عن الربوة حتى بلغ مكان فرسه الأبجر ووثب عليه وهمزه متجهاً نحو ميدان المعركة . ولكنه ما كاد يسير حتى رأى أباه شداداً مقبلا يركض جواده فى عنف نحوه . فوقف فى مكانه حتى صار حياله وناداه شداد قائلا :

— أما ترى قومك يصرعون تحت عينيك ؟

فركز عنترة رمحه فى الأرض وهو راكب وقال له شامخاً بأنفه :

— أى قوم لى ؟

فقال شداد والفرس يتراقص تحته ويحمحم :

— هلم يا عنترة فإن العدو يطحننا .

فقال عنترة :

— وما لعنترة والقتال ؟ ليس لعنترة قوم يا سيدى شداد .

فصاح شداد :

— دع هذا الهراء وأسرع ، فإن العار ينتظرنا .

فصاح عنترة فى وحشية :

— العار ينتظركم ؟ أليس هو العار الذى يجللنى ؟ أليس الذى ينتظركم هو الرق الذى أرسف أنا فى أغلاله ؟ اذهب أيها الشيخ فذق ذل الأسر عند طيئ كما ذقته عندكم طول حياتى .

فصاح شداد :

— قلت لك دع الهراء وأقبل إلى القتال . إن الحرم توشك أن تستباح .

فقهقه عنترة فى صوت أجش وقال :

— أى حرم لعبد مثلى أيها الشيخ ؟ فهل تريد منى أن أتطوع للقتال عن سادتى الذين لا يعرفون مكانى ؟ لا شأن لعنترة بالقتال فاذهب عنى .

فقال شداد :

— وحق مناة لقد أصابك الخبل أيها العاق .

فصاح به عنترة :

— لا تؤاخذنى يا مولاى فإنى نسيت الأدب فى خطابك . ولكنى عبد وما شأن العبد بالقتال ؟

ثم عاد فقهقه فى صوت مخيف .

فقال شداد فى ضراعة :

— أما يخزيك أن ترى نساءك تسبى ؟ أما يخزيك أن ترى قومك صرعى ؟

فقال عنترة متحدياً :

— لقد تركت القتال منذ عرفت أنني لا ينبغي لي أن أساير الأحرار . ليس لي قوم أقاتل عنهم . وليس لي إلا أن أحلب النياق وأن أحفظ سخال الأغنام وفصائل الإبل من عدوان الذئاب .

هذا رمحي أصطنعه هراوة في يدي أهش به على غنمك يا شداد بن قراد . وهذا سيفي ولكنه في غمده أضرب به أعجاز الفحول المتمردة عند موارد المياه . هذا يا سيدي ما أحسن من بلاء الحياة فلا ينبغي لمثلي أن يشارك السادة في الدفاع .

إنما الحر هو الذي يسند الأحرار . فاذهب إلى هؤلاء الذين يحق لهم القتال . اذهب إلى أصهارك وإخوتك وأخوالك الذين لا يرضون لعنترة أن يكون حرًّا يستطيع أن يساير الأحرار .

اذهب إلى عمارة بن زياد الذي كنتم تأكلون الثريد في وليمته . اذهب إلى بني قراد فهؤلاء هم الأحرار الذين يحسنون القتال . أين مالك أخوك ؟ وأين عمرو ابنه ؟ وأين زُخمة الجواد وأين أبناؤه ؟ أين هؤلاء جميعاً وأين سواهم فإنهم في غنى عن عنترة بن زبيبة ؟ !

وعاد إلى الضحك كأنه قد اختبل عقله .

فصاح شداد وهو يكاد ينفجر غيظاً :

— هلم معي ثكلتك أمك قبل أن أنكل بوجهك الأسود .

فصاح عنترة في شبه جنون .

— اذهب أيها الشيخ عني فإنك تسخر من نفسك . اذهب عني

فوحق مناة وكل آلهة العرب الجوفاء إنى لا أعرف القتال . لن تجدنى إلا كما أردت ، عبداً يشمت فيكم كلما رأى الذل يطوى كبرياءكم . اذهب فقل لقومك هذا مصرع البغى والكبرياء . قل لهم ما اتخذ قوم بعضهم عبيداً إلا كان بعضهم فيهم عدواً . أنا عبد عبس ولست من عبس ، أنظر إليكم وأرى طحنكم وأمنع نفسى بقهركم وذلكم . وماذا يضر العبد عنترة إذا نكل العدو بالسادة الذين يخدمهم ؟ أنا اليوم عبد عبس ، وسأكون غداً عبد طيئ . وإذا رعيت لك إبلك اليوم فى عبس فسأرعى إبل سيد آخر فى طيئ غداً . هذا ما تعلمته فيكم من الكرامة ، وما أخذته عنكم من المروءة فاذهب عنى لا أبالك يا شداد بن قراد .

وكان الشيخ يسمع قوله وهو لا يصدق أذنيه ، فقال والغيظ يخنقه :

— لقد هممت أيها الشقى أن آتى إليك فأضع هذا السيف فى صدرك . أهذا عنترة الذى يخاطبنى ؟ أم هو عبد من الزنج لم تقع عينى عليه قبل هذا ؟

فصاح عنترة :

— هذا هو العبد الذى صنعته أنت أيها الشيخ . تعال فضع سيفك حيث شئت فإنى لن أحرك يدى فى الدفاع عن نفسى . أتعجب من قولى وتسأل أهذا عنترة الذى يخاطبك ؟ بل أنا الذى أسأل أهذا هو شيخى وسيدى الذى يخاطبنى ؟ ألا تذكر يوم تركتنى أذهب عنك لأعود إلى العبيد أمثالى فأرعى إبلك وغنمك ؟ أراك قد نسيت ذلك اليوم ونسيتنى .

أوجدت القتال أحر مما يقوى عليه فتيانكم فذكرتنى ؟ أما تدعنى أيها الشيخ أحلب نياق وأرعى غنمى ثم أخون وأسرق وأشمت وأتذلل ؟ أما كان ينبغى لك أن تبعد عنى حتى لا تسمع شماتتى وحقدى . أما كان أجمل بك وبى لو كان حقدى عليك يتنفس من وراء ظهرك كما ينبغى لعبد مثلى ؟

فاقترب شداد منه وأمسك بكتفه فهزها فى عنف وقال له :

— إنك تضيع الفرصة فى حديث باطل . هلم معى لا أم لك !

فنزل عنترة عن فرسه وأهوى على قدم شداد فى الركاب فقبلها ، ثم وقف أمامه قائلا :

— ها أنذا أقبل قدمك كما فعلت من قبل مرة أخرى . على أن أمسح نعليك بوجهى ، وأن أحمل لك أدواتك وكنانة سهامك . وعلى أن آتى لك بالطعام والشراب ، وأن أخدم ضيفك وأقف بين يديك صاغراً . على أن أرهف أذنى لهمسات أمرك فاتحاً عينى لكل إشارة من يدك .

اذهب ياسيدى فأنا عبدك الذى ينتظر خدمتك . فإذا وضعت الحرب أوزارها وعدت إلى بيتك ولم يأخذك العدو عبداً فسوف تجدنى كما شئت عبداً . سوف تجدنى عند قدميك جاثياً مطيعاً ذليلا . وأما القتال فقد قلت لك إنه ليس من شأنى . اذهب أنت لا أم لك يا سيدى ، فلست أحسن إلا الحلب والصر ، ولا شأن لى بالضرب والكر .

وكان شداد يسمع هذه الكلمات وهو يتحرك فى غيظ ينظر تارة إلى

عنترة وتارة إلى الشعب المضطرب الذى يدور فيه القتال . ولما انتهى عنترة من قوله صاح شداد فى عنف :

— أهكذا تتخلى عنى ؟ أما ترى العدو وقد حطم بيوتى وأخذ نسائى ؟ أما تراه قد بلغ فم الشعب حيث منازل أبيك وأعمامك ؟

فصاح عنترة ساخراً :

— منازل أبى وأعمامى ؟

فقال شداد فى بعض لين :

— نعم منازل أبيك وأعمامك . إنك تشمت بنا والحر لا يعرف الشماتة . إنه يشترى نفسه فى مثل هذا اليوم يا عنترة .

فإذا أردت أن تكون حرًّا فاعلم أن الحرية لا توهب عطاء . إنما إذا وهبت كانت كقطعة من العظام تلقى إلى كلب جائع ينتظرها صاغراً . هلم يا عنترة وأزل عنا معرة هذا اليوم .

فوثب عنترة على فرسه قائلا :

— وماذا يكون اسمى منذ اليوم يا شداد ؟

فصاح شداد فى حنق :

— حسبك أيها الأحمق لا أم لك .

ماذا يغنى الاسم عن الرجل إذا كان فى نفسه عبداً ؟

فقال عنترة فى عناد :

— قل لى يا ابن شداد ولو مرة . قل ذلك يا أبى حتى أسمعك تدعونى

ابنك . بم أنادى فى القتال إذا لم أكن عنترة بن شداد ؟

فصاح شداد وهو يهمز فرسه :

— ويك .عنترة بن شداد، إنما العبد من يقول لك منذ اليوم غير هذا.

فاندفع عنترة فى أثره حتى صار بإزائه ، ثم همز فرسه الأبجر فسبق كأنه طير سابح فى الهواء وقال ملتفتاً إلى أبيه :

— الحق بى يا أبى وقاتل إلى جانبى ، فسأنادى اليوم فى قتالى :

إنى امرؤ من خير عبس منصباً شطرى وأحمى سائرى بالمنصل
وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت ألفيت خيراً من مُعَمٍّ مخول

ثم جعل ينشد وهو مقبل على الميدان :

بكرت تخوفنى الحتوف كأننى أصبحت عن عرض الحتوف بمعزل
فأجبتها إن المنيـة منهـل لا بد أن أسقى بكأس المنهل
فاقنى حياءك لا أبالك واعلمى أنى امرؤ سأموت إن لم أقتل
إن المنيـة لو تمثل مُثِّلت مثلى إذا نزلوا بضنك المنزل
ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكل

٧

كان القتال لا يزال يدور بين البيوت وقد حطم الأعداء أعمدتها وقطعوا حبالها . وخرج النساء سراعاً يحملن الأطفال إلى أطراف الشعب يلذن بالصخور ويصعدن فى جوانب الوادى . وكان من بقى من الفرسان يحاولون ما استطاعوا أن ينافحوا بالسيوف والرماح ، فكان الأعداء يدوسونهم تحت سنابك الخيل .

وأقبل عنترة نحو الشعب فكان أول همه أن يرى بيت مالك بن قراد . فلمحه من وراء المعمعة خالياً مهدماً قد بعثر أثاثه ومزقت جوانبه . ودخل فى صفوف العدو الذى كان عند ذلك قد أوشك أن يقضى على كل من دونه فلم يبق أمامه من مكافح إلا قلة من كهول عبس يحاولون ما استطاعوا أن يثبتوا فى مواضع متفرقة . وقد بدا الكلال على خيولهم وترددت على حركتهم مظاهر الاستعداد للفرار .

وكان بعض فرسان طيئ قد أحسوا ريح النصر فهدأوا عن القتال ، وأقبل بعضهم على سلب البيوت من كل ما بها من سلاح ومال ، وطارد بعضهم من لاذ بالفرار من نساء وأطفال يريدون أن يأخذوهم أسرى . وكان أكبر همهم أن يأخذوا النساء ليكنّ لهم إماء . فقد كان هذا عندهم أكبر زهو الانتصار . وصاح عنترة بصوته المجلجل « أنا الهجين عنترة »

ثم أنشد البيت الذى وعد أباه أن ينادى به فى القتال :

إنى امرؤ من خير عبس منصباً شطرى وأحمى سائرى بالمنصل

ثم أهوى على المقاتلين من فرسان طيئ فى حنق منحدراً كأنه صخرة تتدهدى من قمة الجبل . فكان يضرب العدو حيناً بسيفه الذى فى يمينه ، ويطعنه حيناً برمحه الذى فى يساره ، ويصدمه بفرسه الأبجر الذى كان يندفع تحته كأنه يشاركه الحنق والحماسة . وتساقط الطائيون واحداً بعد واحد ، وسمع الذين أقبلوا منهم على السلب صيحة عنترة فوثبوا على أفراسهم سراعاً ، وأقبلوا إليه جماعات يريدون أن يحيطوا به . فأسرع عنترة نحو فارس ضخم من الذين صرعهم فى قتاله فنزع عنه درعه وشدها على جسمه متسربلا بها ، ثم وثب على فرسه فما بلغ النرسان مكانه حتى كان قد ثبت على ظهر الأبجر وهمزه فاندفع فى صدر الكتلة المرصوصة التى تتجه إليه مثل سيل عنيف . وكانت صدمة هائلة اهتز لها عنترة وزمجر من وقعها . ولكن الأبجر استطاع أن ينفذ به فى الصفوف المتلاصقة ، وصرع فى سبيله فرسين ألقيا صاحبيهما ومضيا فى عدوهما أسفل الوادى ، ولكن الأعداء عطفوا أعنة الخيل نحو عنترة ليكروا عليه مرة أخرى . ولوى عنترة عنان الأبجر عائداً إليهم ، وكان صفهم قد تضعضع فى هذه المرة ولم يبق كالصخرة المصمتة . فأهوى عنترة على الفرسان يطعن ويضرب ويجندل منهم واحداً بعد واحد حتى تردد من بقى منهم وآثروا النجاة .

وكان أشتات من فرسان عبس قد سمعوا صيحة عنترة فأقبلوا نحوه من

الثنايا التى لاذوا بها . ودب الأمل فى قلوبهم عندما رأوا عنترة يحصد فى العدو حصداً ، فأقبلوا سراعاً وعادت الجرأة إلى قلوبهم ، فلم يستطع العدو أمامهم ثباتاً ، وولى الأدبار تاركاً وراءه ما كان قد جمع من أموال وسبايا .

ونادى عنترة فرسان عبس أن يطاردوا العدو ، ولوى عنان فرسه نحو وادى الجواء يبحث عن عبلة . ولكن أنى له أن يجدها فى ذلك الحطام ؟ وأنى له أن يعرف أثرها فى ذلك الاضطراب الشامل ؟ لقد أوغل النساء والأطفال فى شعاب الوادى وغابوا فى شقوق الصخر ، وما كان ليستطيع أن يعرف هل نجت عبلة أم أصابتها طعنة ، وهل بقيت فيمن بقى أم عمد إليها فتى من طيئ فجعلها همه من القتال ونجا بها .

فاندفع فى جوانب الوادى ينادى بآل قراد . ويسأل كل من يراه عن نساء شداد وإخوته ، وما كان يريد من ذلك إلا أن يجيبه قائل « قد رأيت عبلة » ، ولكنه لم يجد لها بعد طول البحث أثراً . لقد كانت كل فتاة تنظر كيف تحتال فى النجاة بنفسها وكانت كل أم تبذل قصاراها لكى تفر بفلذات كبدها . وكان فى أقصى الشعب جدار قائم إذا نزل المطر انحدرت مياه السيول من فوقه ، فى شلال متدفق ، فلما بلغ عنترة موضع ذلك الجدار لمح جمعاً من النسوة يصرخن فى أعلاه ويولولن . فأسرع نحوهن وصاح :

— هل فيكن أحد من آل شداد ؟

فصاحت فتاة من أعلى الصخرة :

ـ أنا مروة ابنة شداد .

فصاح عنترة :

ـ كيف أنت يا مروة ؟ وكيف أمك وإخوتك ؟ هل أصاب أحداً منكم شر ؟

وكان وهو يسأل سؤاله يريد أن يعرف أول ما يعرف أين عبلة .

فسمع ولولة عالية وصرخت مروة قائلة :

ـ لقد أخذوا عبلة !

وكأن طعنة قد أصابت قلب عنترة عند ذلك .

فزمجر قائلا :

ـ لهم الويل مني !

ثم همز الأبجر فانطلق به فوق جانب الوادى حتى صار فوق السهل الفسيح الذى عليه الطريق إلى بلاد طيئ .

ولم يدر ماذا هو صانع ولم يقف لحظة ليفكر فيما ينبغى له أن يفعل ، بل اندفع فى سبيله لا يريد إلا شيئاً واحداً ، أن يعثر على أثر القوم الذين فروا بعبلة . وسار فى هضبة صلبة والجواد يعدو به فيقدح بحوافره من من الصخر شرراً ، حتى اتصل بالطريق التى اعتادت القوافل أن تسير فيها إذا اتجهت نحو الشام ، وكان ليناً على حوافر الأبجر فانطلق فيه وعض على شكيمته كأنه هو الذى يطارد الأعداء .

وفيما كان عنترة ناظراً إلى الأفق لا يلتفت إلى جانب الطريق ، سمع صرخة عن يساره كصرخة المستغيث . فشد عنان فرسه ليهتدى من عدوه والتفت نحو مبعث الصرخة فرأى أمامه امرأة تعدو فى السهل الرملى مقبلة نحوه . وتعجب إذ يرى امرأة مثلها وحيدة فى ذلك البراح المقفر . وسأل نفسه ماذا عسى أن تريد منه . ولو كان ذلك رجلا لما تردد فى أن يسير ويخلفه وراءه ، فما كان فى صبره مشع لغير مطاردة الذين مضوا بعيلة . ولكنه رآها امرأة ولعلها كانت من عجائز عبس ، أو لعلها سبية من قبيلة تريد أن تستنجد به ، وما كان لعنترة أن يصم أذنه عن صراخ امرأة تناديه . وتأمل المرأة وهى تقبل نحوه فتعجب من سرعة عدوها فوق الرمال خفيفة كأنها فتى من الفتيان . حتى إذا ما اقتربت منه صاح بها فى ضجر .

— أبك شر أيتها المرأة ؟

فسمع الجواب ضحكة عالية أثارت غضبه ، وكاد يسبها ويمضى لولا أن سمع صوت أخيه شيبوب يقول له :

— أما تعرفنى ؟

ففتح عينيه فى دهشة وأسرع نازلا عن فرسه وصاح به :

— ما الذى أتى بك إلى هنا ؟

وكان شيبوب قد اقترب منه وهو يلهث من أثر الجرى ومنخاراه الواسعان يتحركان مع أنفاسه كأنهما منخارا الأبجر . فلم يملك عنترة أن تبسم من منظره وقال له :

ـ أين كنت فى هذا القتال يا شيبوب ؟

فقال شيبوب فى أنفاس مضطربة :

ـ كنت أرقب القتال مع النساء من وراء ثنية « العقاب » ، حتى رأيتك مقبلا مع شداد نحو الميدان ، فاستبشرت وناديتك ويك عنترة ،

فقال عنترة فى ضجر :

ـ ولكن ماذا أتى بك إلى هنا ؟ قل وأسرع فليس فى الوقت فضلة لهرائك .

فقال شيبوب :

ـ ثم رأيتك تفرى فى العدو فرياً . فخرجت من وراء الثنية وعزمت على أن ألبس درعى وأسرع إلى جانبك .

فصاح عنترة فى قلق :

ولكنك آثرت البقاء مع النساء . أعرف طبعك اللئيم ، فقل ماذا أتى بك إلى هنا .

فاستمر شيبوب كأنه لم يسمع قوله :

ـ ولكنى عندما لبست اللأمة وشددت الدرع حول جسمى لمحت ثلاثة فرسان يقبلون نحو جمع النساء من ورائى . فرأيت كأن الموت يقبل على ، وتداريت وراء الثنية ، وهناك سمعت ولولة النساء وبكاء الأطفال فكاد قلبى يتمزق .

فقال عنترة فى حنق :

— ليته تمزق أيها العبد !

فقال شيبوب :

— إذن لكنت لا تعرف شيئاً عن عبلة .

فصاح عنترة :

— وأين عبلة ؟ أتعرف أين هى ؟

فقال شيبوب مشيراً إلى خلفه :

— نعم هى هناك . ولو تمزق قلبى لما قدرت على أن أسير مع الفرسان هذه المسافة الطويلة .

فقال عنترة :

— أسرت مع الفرسان ؟

فقال شيبوب :

— نعم . ولكن صبراً فإنى لا أقدر على أن أقص عليك ما رأيت إذا كنت تستمر على مقاطعتى .

فهدأ عنترة بعض الشيء عندما عرف أن شيبوب يعلم موضع عبلة . وصبر حتى قص أخوه عليه قصته .

عندما أقبل الفرسان من وراء شيبوب ألقى سلاحه حتى لا يفطنوا إليه ، وأسرع إلى حطام بيت قريب فأخذ منه ثياب امرأة عجوز فلبسها ، ثم سمع ولولة النساء وهن يصحن قائلات :

« لقد أخذوا عبلة » !

وخطر له عند ذلك خاطر جرىء ، فأسرع فى ملابس العجوز نحو الفرسان الثلاثة وهم يهمون بالفرار بعبلة ، فوقف فى وجههم صائحاً مولولا يقول :

— سيدتى . سيدتى .

فأقبل عليه اثنان منهم وحملاه وألقياه على ظهر فرس ، ثم ركبوا أفراسهم سراعاً نحو الفلاة . فكان أحد الفرسان يردف عبلة والآخر يردف شيبوب وهو يحسبه خادمتها العجوز ، والثالث يأتى من خلفهما ليرد عنهما من قد يأتى إليهما من وراء .

فما زالوا يسيرون حتى كلت أفراسهم من السير ، وعزموا على قضاء الليلة عند ماء « الربابية » ، ليريحوا الأفراس ويستريحوا من عناء المعركة ، ثم يستأنفوا السير بكرة بغنيمتهم النفيسة عائدين إلى بلاد طيئ .

وسمع عنترة القصة فى اهتمام ولهفة فلما انتهى شيبوب منها قال عنترة :

— وهل هى بعيدة من هنا ؟

فقال شيبوب :

— أنسيت يا عنترة ماء الربابية ؟ ألا تذكر يوم . . .

وكاد شيبوب يدخل فى قصة أخرى لولا أن قاطعه عنترة قائلا :

— أهى بعيدة من هنا ؟

فقال شيبوب :

— قد ظنونى عجوزاً حقاً فرموا بى إلى جانب الخباء وذهبوا يملأون

الحوض لأفراسهم ، فانطلقت بعد أن رأيت عبلة فى خبائها .

فقال عنترة فى رقة :

— وكيف هى يا شيبوب ؟

فقال شيبوب متأثراً :

— كانت لا تسمع القول من شدة البكاء . . . ومع ذلك فقد تبسمت إلىّ عندما قلت لها هامساً « سوف أذهب إلى عنترة وأجىء به إليك » .

ولكنها تعجبت منى ولم تدر من تكون هذه العجوز السوداء . لم تعرف المسكينة أننى أنا شيبوب ، فتركتها وانطلقت عائداً نحو أرض الشربة ، وكان ذلك قبل أن يزيد الظل على قامتى .

فنظر عنترة إلى ظل أخيه وكان قد بلغ طول قامتين . وقال له :

— أتركب ورائى يا شيبوب ؟

فهز شيبوب رأسه قائلا :

— سوف أعدو أمامك ولن يستطيع الأبجر أن يدركنى .

وعدا يجرى خفيفاً متجهاً إلى بئر الربابية ، وسار عنترة وراءه والأبجر يغوص بحوافره ثقيلا فى الرمال حين بعد عن الطريق .

وكانت صدمة يسيرة على عنترة إذ التقى بالفرسان الثلاثة عند ماء الربابية . فما هى إلا ساعة حتى قتل أحدهم وفر اثنان منهم بعد أن أصابتهما الجراح ، وركب عنترة فرسه عائداً بعبلة رديفة وراءه . وركب

شيبوب وراءهما على فرس الطائى القتيل ، وهو يغنى ويزغرد كما يزغرد النساء .

وبلغوا حلة عبس فى صدر الليلة وكانت القبيلة قد امتزج فيها فرح الانتصار بحزن المصاب ، إذ فجعت فى كثير من فرسانها ، وكانت أكبر فجيعة لها أن فقدت عبلة ابنة مالك من بين النساء .

فلما عاد عنترة بعبلة لم يبق فى الحلة إلا الفرحة الشاملة بالانتصار . وقضت عبس أياماً فى عيد متصل إذ كانت نجاتها إحدى العجائب التى جرت المقادير بتدبيرها .

٨

بلغت أنباء الغزوة زهير بن جذيمة ملك عبس وهو فى طريقه إلى بلاد طيئ، وسمع أن الطائيين قد خادعوه وأطبقوا على الحلة فى غيبته، فحطموها وقتلوا من فيها وأسروا أطفالها ونساءها وساقوا سرحها ، حتى لم تبق فيها بقية إلا حطام البيوت ، بعد أن دكت وقطعت حبالها . وكان لهذا النبأ وقع الصاعقة على زهير وجيشه ، فقد خرجوا يطلبون تحطيم طيئ والانتصار عليها بعد أن أعدوا لتلك الغزوة عدتها ، فإذا هم يسمعون أن ذلك العدو هو الذى تسلل إلى ديارهم فاستطاع أن يحرز فيها انتصاراً يبقى ذكره أبد الدهر ، ويلحق بعبس عاراً لا يمحى . فأسرع عائداً يعترض الطريق لعله يلقى فيها جيش طيئ فينتصف منه ، أو يلحق بمن هلك من قومه حتى لا تلصق به معرة الأبد . ولكنه لم يلق فى الطريق جيشاً من طيئ، حتى عجب وحسب أنهم قد خادعوه تلك المرة أيضاً ، فاتبعوا طريقاً أخرى حتى لا يلاقوه . ولكنه عندما بلغ أرض الشربة والعلم السعدى وجد الحلة فى عيد صاخب ، ورأى قومه يستقبلونه بالتهنئة والبشرى ، وكان شداد فى صدرهم وإلى يمينه ابنه عنترة .

فقال شداد لزهير عندما حياه :

ــ لئن كانت لنا بقية فالفضل فيها لعنترة بن شداد .

فكان هذا اعترافاً صريحاً ببنوة عنترة ، سمعته عبس من شداد لأول

مرة ، وكانت ضجة الهتاف عند ذلك من شباب القبيلة تنم عما يضمرون لعنترة من الإعجاب .

ولم يسع السادة إلا أن يمدوا أيديهم إلى عنترة يصافحونه ، ويعترفون بما له على قومه من فضل سوف يبقى ذكره أبد الآباد .

ومضت أيام كانت فيها الأعياد متصلة . وكان عنترة فيها واسطة العقد فى الأسمار والولائم . فلم يدع العبسيون وسيلة يعبرون بها عن شكرهم لعنترة إلا توسلوا بها . فالكؤوس إذا دارت فى مجلس الملك كان عنترة أول الشاربين ، وإذا أنشدت الأشعار فى حلقات الندى كان شعر عنترة على كل لسان ، وإذا أقبل الفتيات إلى حلقات الرقص كان غناؤهن باسم عنترة . وما كان أحب إليه أن يسمع اسمه الجديد عنترة بن شداد من أفواههن إذا هن هتفن باسمه .

ولم يستطع مالك ولا ابنه عمرو أن يتعرضا له إذا تحدث إلى عبلة ، ولم يستطع عمارة بن زياد أن يظهر غضباً إذا هو رآها تجلس إلى جانب ابن عمها البطل أو تسايره وتناجيه . بل لقد تحدثت المجالس فى همس : أما آن لعمارة أن يدع الفتاة لمن أحبها وهتف فى شعره باسمها وهو أولى الناس بها . وقالوا إن عبلة كانت لولاه تصيح أمة سبية فى أرض طيئ وهيهات لعمارة أو غير عمارة أن يستطيع ردها .

وسار عنترة فى ليلة من تلك الليالى مع عبلة بعد أن انفض سامر الحى ، يشيعها إلى بيتها ، وكان مخموراً بخمرين ، من الكؤوس العدة التى دارت

عليه فى مجلس الملك زهير ، ومن حديث ابنة عمه التى كانت تهمس به إليه فى تهاتف من ضحكها وأنغام صوتها الرخيم . وجرى الحديث بينهما متنقلا كفراش الربيع ، فكان عنترة أحياناً يصف لها بعض مغازيه ، وأحياناً يصف لها أخاه شيبوب فى خبثه ونوادر حيله ، فتضحك عبلة وترمى شيبوب بفكاهة من فكاهاتها . وكان أحياناً يحدثها عن وحدته وهمومه ، وما كان يراه فى الصحراء فى الليالى المظلمة عندما باعد قومه من أجلها ، فوصف لها الغول وقد لاحت له ترمقه بعينيها الزرقاوين كأنهما لسانان من لهيب . ووصف لها الجن وهى تتراقص فى الظلام أمام عينيه وتبرز نحوه أظافرها كأنها كلاليب من حديد . ثم أنشدها من شعره وحدثها بنجوى قلبه ، حتى خطرت له خاطرة من ذكر حديث عمارة وخطبته إياها ، فسألها فجأة :

— أحقًّا ما يقولون يا عبلة ؟

فقالت عبلة باسمة :

— وماذا يقولون يا ابن عم :

فوقعت كلمتها على نفسه وقع أنغام المزاهر وقال لها مداعباً :

— إنك تسألينى كأنك لا تعرفين ما أقصد يا ابنة العم . لقد عهدتك تدركين ما وراء اللفظ قبل أن أنطق به .

فمالت برأسها ناظرة إليه بعينيها الباسمتين وقالت : أحقًّا ذلك ياعنترة؟ فقال عنترة : ألا تذكرين إذ كنت تسألينى عن أمر فأقول : « لا » .

فتضحكين منى ، فإذا سألتك عن ضحكك قلت إننى ما قصدت أن أقول لا ؟ إنك تحسين بالإلهام ما لم يقع بعد فى سمعك . فما الذى جعلك تسألين عما يقولون كأنك لا تعرفينه ؟

فقالت عبلة : أما كنت أنت الذى لا تدرك إلا ما وراء اللفظ ؟ إنك لتسمع من حديثى ما لم أقل لك ، وإنك لتزعم أنك تعرف من معانى قولى ما لم أقصد من قولى . ألا تذكر إذ سألتنى بالأمس عن عمارة ، فلما أجبتك لم يعجبك جوابى وأبيت إلا أن تزعم أننى أراوغك ؟ ألا إنك أنت الذى تراوغنى وتكابرنى .

فقال عنترة : لقد فهمت قصدى بإلهامك منذ ذكرت عمارة . إنه هو الذى يتحدث الناس عنه وعنك .

فقالت عبلة : أف لك ولعمارة ! إن الناس لا يزالون يتحدثون فى شأنه وشأنى ، وليت شعرى أى أحاديث الناس تقصد ؟ فليس لهم من هم فى ليل ولا نهار إلا أن يتحدثوا . إنهم يتحدثون إذا أكلوا ، ويتحدثون إذا شربوا ، وهم أكثر حديثاً حين تحمى سورة الخمر فى رءوسهم . وهم يتحدثون إذا صحوا وإذا ناموا ، فأى هذه الأحاديث تقصد يا عنترة ؟

فقال عنترة :

— لست أبالى ما يقولون فى ليلهم أو فى نهارهم إذا كان حديثهم لا يعنيك أنت .

فقالت عبلة : وماذا يهمك من هذه الأحاديث وقد طالما سمعتك تزعم

أنك لا تبالى ثرثرتهم ؟

فقال عنترة فى نغمة عتاب :

— لا تعبثى بى يا عبلة فإنى أحب أن أسمع منك كلمة .

فقالت عبلة : أية كلمة تحب أن تسمع منى ؟ قلها لى حتى أرددها كما شئت .

فقال عنترة متألماً :

— أنا بين يديك أضعف من فرخ اليمام . وأخف من ريشة فى الهواء . ذرينى يا عبلة أعرف ما فى قلبك .

فقالت عبلة فى دلال :

— وأين ادعاؤك أن لك شيطاناً يلهمك ؟

فقال عنترة فى حماسة :

— إن هذا الشيطان لم يستطع يوماً أن يسبر غور قلبك . إنه لا يسبر إلا غورى ولا يكشف إلا عن قلبى . أما أنت فإنى أجلس معك وأسير إلى جانبك ، وأعرج [1] إلى السماء إلى حيث أحيا فى عوالم سحرية من السعادة تلهينى عن كل هذه الأرض ، ثم أنصرف عنك وقلبى فى حيرة بين الأمل الذى يلوح لى والقلق الذى يساورنى . وأنظر حيناً إلى الأرض فأراها جنات فيحاء ، تحيط بها الأنهار وتتفجر فيها العيون ويبتسم فيها الزهر ويغنى الطير ، ثم لا ألبث أن أحس الشجون تثور بى فلا أرى حولى

(١) عرج يعرج : ارتقى .

إلا صحراء بلقعاً ولا أعرف أأنا أطأ الأرض بقدمى أم أنا فوق لجة تضطرب بى . ومع ذلك فإن شيطانى فى شغل عنك بى . . .

فقالت عبلة فى مرح :

— هذا هو شعرك دائماً يا عنترة . أعد علىّ قولك وأطل فى الحديث ، فإنه ينزل على سمعى كما يقع الندى على أوراق الشجر .

فقال عنترة فى ألم :

— أليس يصل إلى قلبك غير حديثى ؟ أليس يعجبك منى غير شعرى ؟ إنى أحدثك وأصف لك حروبى وأطرب كلما سمعتك تستزيدين من وصفى ، وأصف لك همومى فتهون على إذا سمعتك تعطفين بالرحمة على همومى . ولكنى إذا حدثتك بحديث قلبى لم أسمع منك إلا الإعجاب بقولى . إن كل ما يعجبك منى إنما هو حديثى وهو شعرى . وما أنا عندك إلا حديثاً وشعراً .

فقالت عبلة فى شىء من الضيق : وماذا يرضيك أن أقول يا عنترة ؟

فأجاب عنترة فى صوت متهدج :

— أنا أقنع منك بأيسر ما يقنع به العبد يا عبلة . لقد ضقت برقى وحطمت قيودى لكى أكون بين الناس حرًّا . ولكنى لا أحب إلا أن أبقى لك أنت عبداً . لقد خدمتك أخلص ما تكون الخدمة ولم أستشعر منك يوماً كبراً ، ولكم جثوت تحت قدميك وأنا أقدم لك قعب اللبن لتشربى منه ، وكنت أقولها لك من أعماق قلبى : « هنيئاً يا سيدتى ! » .

كنت أنت علالتى فى حياتى ، وكنت أطمع أن أكون عندك شيئاً . كنت أطمع أن أسمع من قلبك ولوّ نبضة واحدة تستجيب لخفقان قلبى .

فضحكت عبلة ضحكة مرحة بعثت رعدة فى قلب عنترة . وقالت :

— ماذا أقول لك يا عنترة فى جواب قولك ؟ ليتنى أستطيع أن أقول شعرك فأرضيك بمثل قولك . ولكن هيهات يا عنترة ! فلن تجد منى إلا قولا ضئيلا : إنك ابن عمى .

فقال عنترة فى شىء من الحنق :

— إنى ابن عمك ؟ إنها كلمة جوفاء لا تحمل معنى .

فاستمرت عبلة فى ضحكها وقالت :

— ألست يا عنترة عجيباً ؟ ليتنى أعرف السبيل إلى كلمة ترضاها .

فأجاب عنترة فى حرارة :

— أنت لا تعرفين السبيل إلى تلك الكلمة لأن قلبك لا ينطوى عليها . وما طلبى ولحاجتى فى أمر إذا كان ما أطلب مستعصياً ؟ قولى لى قولا صريحاً يا عبلة . لا تتجملى فى الجواب ولا تترفقى . قولى لى حقيقة ما تحسينه نحوى . قولى إنك لا تزيدين على أنك تعجبين بشعرى وتشعرين السرور من قصصى وحديثى . قولى إنك ترحمين تذللى لك وتعطفين على ولائى . قولى لى إنك لا تنظرين إلىّ إلا كما تنظر السيدة إلى عبد يخدمها . قولى لى إنك مثل مناة ، وما أنا إلا مثل هؤلاء الراقصات اللاتى يعبدنها . قولى لى ذلك كله ولا بأس عليك فإنى أعرف كيف يبدو لك وجهى .

لقد طالما وقفت أمام الغدران أنظر إلى صورتى فلم أر فيها غير لونى الأسود وعينى الصارمتين المتقدتين يطير منهما شعاع مخيف . قولى لى ذلك ولا بأس عليك إذا أنت لم يطربك منى غير حديثى وشعرى . فأين أنا من الفتى الجميل عمارة بن زياد ؟

فقالت عبلة فى غضب :

— إنك تذهلنى بسيل حديثك الخانق ، حتى لقد ارتج علىّ القول فلا أجد لك جواباً .

فقال عنترة غاضباً :

— ما أحمقنى إذ أحاول أن أنتزع القول منك قسراً !

فقالت عبلة وقد ذهب منها مرحها :

— يخيل إلى أن قولك يحمل من الجد فوق ما كنت أحسب . ماذا جنيتُ يا عنترة حتى أستحق منك هذا العتاب القارص ؟ لقد بعدت فى القول عما بدأت فيه . ألا تقول لى أنت ماذا تعنى ؟

فقال عنترة فى حرارة :

— إننى أسألك عن نفسك أنت . قولى لى الحق ولا ترفقى . قولى لى إنك فوق نظراتى وفوق عبادتى .

فقالت عبلة فى تبرم : قول عجيب وحق مناة . ألاح لك منى ما تكرهه ؟

فقال عنترة بصوت متهدج :

— أنت تتجاهلين ما تعرفين يا عبلة . تتجاهلين ما يتحدث به الناس جميعاً فى نواديهم وطى بيوتهم . ألم يخطبك عمارة بن زياد وأنت به راضية ؟ ألم يولم له أبوك وليمة كأنه ملك ؟ أما كنت تخدمينه وتسعين فى البيت تستحثين الإماء لكى يبالغوا فى إكرامه ؟ هذه أنت منذ الليلة تراوغين ولا تريدين أن تتحدثى بشىء وتخفين كل ذلك فى أعماق قلبك .

فقالت عبلة واجمة :

— عجباً منك يا عنترة . أهذا هو ما تعنى !

فقال عنترة مندفعاً فى غضبه :

— أليس هذا شيئاً عندك ؟ إنك تتخذيننى هزواً ولا تريدين أن تكشفى لى عن حقيقة . الويل لعمارة والويل ثم الويل لك !

فنظرت عبلة إليه فى دهشة ثم دمعت عيناها وقالت :

— إنك ترمينى بسهام فى هذه الدفعات الحانقة ، وتلقى على من الذنوب ما لا ذنب لى فيه . ثم أنت هذا تجبهنى وتطعن قلبى وتنادينى بالويل ، واندفعت تسير عنه مغضبة .

فأسرع عنترة وراءها وهو يقول فى ضراعة :

— عفواً يا عبلة فإن شقائى هو الذى حرك لسانى . أأقول لك الويل وإن دمعة من عينيك أفتديها إذا استطعت بحياتى ؟ ويلى أنا وتعساً لى ! وحاشاك أن يحل الويل ساحتك يا ابنة عمى .

ولكن عبلة سارت فى طريقها صامتة ومسحت دمعها بطرف كمها .

واستمر عنترة قائلا :

— ألا تقولين لى إنك عفوت عنى ؟ أحقًّا أنت غاضبة من فلتة لسانى ؟ قولى لى يا عبلة ما سألتك عنه ينصرف كل شقائى . قولى أحقًّا ترضين عمارة بن زياد ؟

فقالت عبلة فى جفاء :

— وما شأنى بزياد أو ابن زياد ؟

فقال عنترة مترفقاً :

— قولى كلمة يستقر لها قلبى . إنهم يتحدثون ويملأون صدرى شقاء . فهل رضيت به حقًّا ؟

فقالت عبلة فى حنق وعناد :

— وما أنا وذلك ولست إلا فتاة فى بيت أبى ؟

فقال عنترة فى لهفة :

— ورضاؤك ؟

فقالت فى شبه سخرية :

— رضائى ؟

فقال عنترة ضارعاً .

— نعم رضاؤك يا عبلة . أنا لا أعبأ إلا برضائك أنت .

فقالت عبلة فى تحد :

— وما رضائى الذى تسأل عنه ؟ فهل أنا إلا فتاة فى بيت أبيها ؟

فقال عنترة فى وحشية :

— إذن تذهبين إلى بيت ابن زياد لو رضى أبوك ؟ أتكونين له زوجة إذا قبل مالك بن قراد ؟ أتذهبين إلى بيت ابن زياد كما تذهب الأمه مع سيدها .

فقالت عبلة فى كبرياء :

— كف لسانك يا عنترة . لست أمة وما ينبغى أن يقال لى لفظ الأمة . إنما الأمة غيرى .

فصاح عنترة فى حنق :

— نعم الأمة غيرك يا عبلة . إنها زبيبة أمى .

فقالت عبلة فى جفاء :

— قل ما بدا لك فلن أجيبك .

فقال عنترة فى صوت أجش :

— الآن قد برح الخفاء يا عبلة وانجلى الظلام الذى كان يحجب الحقيقة عنى . الآن عرفت ما كنت أبغى . ما كان أحمقنى إذ كنت أسعى إلى أن أعرف هذا الذى عندك فأرتد إلى بيتى أشقى الناس بعد أن كنت أمرح فى جهالتى . إذن فهو زوجك ابن زياد الذى ترضينه ويرضاه أبوك . وأما أنا فلست إلا ابن زبيبة الذى يحدثك ويزجى لك وقت فراغك .

ثم ثار وقال فى وحشية :

— إننى ابن زبيبة الأمة ، ولن يذهب ذلك العار عنى . فلأذهبن إذن مع سيول الدماء وعواصف اللهيب . ألا فاعلمى يا عبلة أن ابن زياد لن يقترب منك . فأنت لى أنا ، أنا الذى أحببتك وعبدتك ولا أستطيع أن أحيا إلا بك . أنا ابن زبيبة الذى اشتريت نفسى بسيفى من أجلك . نعم من أجلك أنت التى لا تعرفين منى غير شعرى . ألا فاذكرى يا عبلة قولى ، سوف أبعث إليك ليلة زفافك برأس هذا الفتى الوسيم ليكون هدية عرسك . ولن تزال العرب تتحدث بذكر هديتى .

وكانا قد قربا من بيت مالك بن قراد ، فوقف عنترة يعترض سبيل عبلة وهى متجهة إلى بيت أبيها ، مادًّا إليها يده كأنه مستغفر واللفظ الخانق يكذب استغفاره . ومضت عبلة نافرة باكية إلى خبائها . ووقف ينظر إليها حتى غابت ، فاشتعلت فى صدره ألسنة من النار وضاق صدره ، فدار على عقبيه فجأة واتجه نحو الصحراء وهو يخبط الأرض برمحه ولا يدرى إلى أين يتجه فيها .

٩

خلا وادى الحواء من منازل مالك بن قراد منذ نزح بأهله إلى أرض شيبان ، وقد ضاقت به الحياة فى قومه منذ جهر عنترة بما ينطوى عليه قلبه من حب عبلة والتعلق بها . وما اعتزمه من عداوة كل من يجرؤ على طلب زواجها . وكان مالك يضمر فى قرارة نفسه إحساساً بالمعرة من أن يعطى ابنته لعنترة وإن كان فارس قومه وحاميهم . وما كان مثله ليصهر إلى رجل ولدته زبيبة الأمة . فيمزج دماءه بدماء عبد وإن كان ذلك عنترة الفارس ابن أخيه شداد . وكان عمرو بن مالك أشد من أبيه أنفة وكبراً ، فكان يؤثر صديقه عمارة بن زياد السيد الوهاب المنحدر من سلسلة الأماجد من الآباء والحرائر من الأمهات والجدات . ولم تكن عبلة بأقل ضيقاً وتبرماً بالإقامة فى عبس من أخيها وأبيها ، فقد وجدت نفسها قطب الأحاديث فى أندية قومها وهدف الحسد من صاحباتها ، لا يخلو يوم من نفرة فى الحى من أجلها ، حتى كاد القتال يدور بين طوائف متنازعة فى قبيلتها ، فمنهم من كان يهتف بعنترة ومنهم من كان يتحيز لعمارة ، وهم فى كل يوم وفى كل ليلة يتصادمون ويتنازعون حول اسمها فانطوت على نفسها كئيبة لا ترضى بأن تزور ولا أن تخرج للقاء من يأتى إليها فى زيارة . وكانت صاحباتها كلما جئن إليها لا يجدنها على عادتها مرحة مستبشرة تملأ المجالس بهجة وتبث فيها روحاً من صوتها العذب

الضاحك . وكان ألمها يزداد كلما تذكرت ما كان بينها وبين عنترة فى تلك الليلة إذ قسا عليها وقال لها إنها ستذهب إلى بيت عمارة كأنها الأمة . ولم يتردد فى غضبه أن فاداها بالويل وأغلظ فى حديثها ، ولم يرض منها بما كانت تهدهد به نفسه من مواساتها واعتذارها ، بل إنه هددها بهديته الدموية إذ قال إنه سوف يرسل إليها رأس عمارة ليلة زفافها .

وكانت فى اعتكافها ساكنة تقضى أكثر الوقت ضعيفة فى فراشها ، وتبكى أحياناً ولا تدرى ما الذى أبكاها ، حتى حال لونها وذبلت نضرتها ، وامتلأ صدرها كآبة وهمًّا .

وضاق المقام بأبيها مالك وحار فى أمره كيف يطيق الحياة وهو يسمع الناس ينشدون شعر عنترة فى ابنته ويستعيدونه فى مجالسهم . فكانت أنفته تثور ، ولكنه كان لا يستطيع أن يقاتل الناس كل يوم وهم لا يفعلون أكثر مما يفعله العرب فى إنشاد قصائد الشعراء . ولكن ولده عمراً كان لا يقدر أن يمسك نفسه ، فكان لا يمر بقوم يتغنون بذلك الشعر إلا بادرهم بالسب وهمّ بقتالهم . فأشفق مالك من ذلك كله ولم يجد مخرجاً من الأمر إلا أن يعلن قومه بأنه لن يزوج ابنته لعمارة ولا غير عمارة ، ثم غادر أرضه ورحل إلى أرض أصهاره بنى شيبان .

وأما عنترة فإنه لم يطق البقاء فى عبس بعد أن رحلت عنها عبلة . فهام على وجهه فى الصحراء فكان لا يلم بالحى إلا بين حين وحين ، وكانت زيارته لا تزيد على أن تكون زيارة لوادى الجواء ليقضى منه أربه ،

فيتنسم نسيمه وينشد عنده بعض شعره ثم يعود إلى صحرائه ليضرب فى شعابها.

وجاء يوماً إلى أرض الشربة ، وزار طلل دار عبلة فى وادى الجواء . وقد برزت وجنتاه وغارت عيناه واصفر لونه الأسمر وصارت عيناه تأتلقان ، كأن شعاعهما بريق السيف فى ضوء القمر .

وجاء إلى طلل الدار فجال بين مواضع نيرانه وآثار أوتاده وبقايا نؤيه[١] التى كانت تحيط بخيامه ، ثم وقف مبهوتاً يمسك أعلى رمحه المركوز فى الرمل مسنداً بذقنه عليه كأنما هو تمثال فى خرائب معبد مندثر :

وجعل يترنم قائلا :

يا دار عبلة بالجواء تكلمى ... وعمى صباحاً دار عبلة واسلمى

حييت من طلل تقادم عهده ... أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

كيف المزار وقد تربع أهلهـا ... بعنيزتين أهلهـا بالغيلم

ولقد نزلت فلا تظنى غيره ... منى بمنزلة المحب المكرم

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك ... إن كنت جاهلة بما لم تعلمى

يخبرك من شهد الوقيعة أننى ... أغشى الوغى وأعف عند المغنم

يدعون عنتر والرماح كأنها ... أشطان[٢] بئر فى لبان[٣] الأدهم

ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمهـا ... قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

وإذا شربت فإننى مستهلك ... مالى ، وعرضى وافر لم يكلم

---

(١) النؤى : هى الحفيرة حول الخيمة تمنع عنها السيل .

(٢) الأشطان : الحبال . (٣) لبان الفرس الأدهم : أى صدره .

وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرمى
ولقد ذكرتك والرماح نواهل منى ، وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

وقضى ساعة وهو يتأمل ما تحت عينية . فهناك كان خباؤها ، وهناك كانت تقبل عليه باسمة ، وهناك كانت تضحك مكركرة ، وهناك كانت تقف ناظرة إليه فى عطف وهو يصف لها آخر مغازيه .

ثم تذكر كيف أتى إليها عندما سمع بمرضها فلم يأذن له أبوها برؤيتها ، فلما أرسل إليها أمه لم تجد منها سوى البكاء ، ولم تسمع منها إلا كلمات يبدو فيها الحنق والحزن . ونظر إلى بيوت الحى المنثورة فى أنحاء الوادى فأحس من نفسه دفعة إلى أن يمضى إليها فيهدمها على من فيها ، ويطعن فيهم برمحه ويضرب بسيفه حتى لا يبقى منهم أحداً فى الديار التى كانت هى صاحبتها وهى النازلة فيها . فما تلك البيوت بعد أن خلت من عبلة ؟ وما تلك القبيلة كلها بعد أن رحلت عبلة منها ؟

وجعل يتغنى وهو متكئ بذقنه على يديه ، مستنداً على رمحه لا يحس شيئاً مما حوله ، حتى جاء أخوه شيبوب من ورائه وهو لا يحسه . وكان يقول :

خليلىّ أمسى حب عبلة قاتلى وبأسى شديد والحسام مهند
حرام علىّ النوم يا ابنة مالك ومن فرشه جمر الغضا كيف يرقد؟
وأنتم أرضاً كنت فيها مقيمة لعل لهيبى من ثرى الأرض يبرد

رحلت وقلبي يا ابنة العم تائه على أثر الأظعان[1] للركب ينشد
لئن يشمت الأعداء يا بنت مالك فإن ودادى مثلما كان يعهد

فناداه شيبوب من ورائه :

— ها هى ذى ركائبك ياعنترة حاضرة .

فنظر عنترة إليه فى فتور ونزع الرمح من الرمل وسار بجر رجليه حتى ركب فرسه . وسار أخوه يسوق الإبل المحملة من ورائه ، يسمع إنشاده كأنه يهمس به إلى نفسه ، حتى بعد عن الحى وأوغل فى الصحراء .

وأقبل الليل فتقدم أخوه نحوه وسأله النزول ، فقال عنترة واجماً :

— لوددت أن أسير ليلى ونهارى ، فإنى لا أطيق أن أستقر يا شيبوب .

فقال شيبوب مازحاً :

— ولكنى لست مثلك يا عنترة . ولابد لى أن أذوق من الطعام والخمر بعد كل يوم .

فنزل عنترة وانتحى مكاناً من كثيب فرقد فوقه ، وذهب شيبوب ليوقد النار ويعد الطعام . فلما فرغ من ذلك عاد إلى أخيه يحمل صحفة ثريد وزق خمر ، ولم يستطع عنترة أن يقاومه فأكل معه لقمات ، ثم أخذ منه كأساً بعد كأس وهو يغمغم بين حين وآخر ببعض الشعر .

واتجه شيبوب إليه بعد حين وقد حركته الخمر فقال :

— هذا الفضاء الفسيح يشملنا وحدنا ، فكل ما فيه من أودية وتلال

---

(١) جمع ظعينة وهى الهودج أو المرأة فى الهودج (والهودج ما يجعل على البعير لتركب فيه المرأة) .

وأغوار لنا وحدنا . ولو كان فى هذه الأودية أموال لم يمتنع علينا شىء منها ، فنحن نملك هذه الأرض كلها يا عنترة .

فقال عنترة فاتراً :

— ولكنى لا أطلب من هذه الحياة شيئاً يا شيبوب . فما أصنع بالمال وقد فقدت عبلة ؟ ماذا أصنع لو ملئت لى هذه الأرض خيلا وإبلا وفاضت لى عيوناً وأخرجت لى من حصاها لؤلؤاً وياقوتاً ؟ ماذا أصنع بهذا كله وقد فقدت عبلة ؟

ويل للإبل ومن يملكونها ! فسحل بن طراق الكندى يملك من الإبل ألوفاً وهو يسوقها صداقاً إلى مالك يريد أن ينزع منى عبلة . وفى بنى شيبان قيس بن مسعود يملك منها الألوف وهو يهبها لعله يفوز بعبلة لابنه بسطام . وعمارة بن زياد يملك منها الألوف ويسوقها إلى مالك لكى يزوجه بعبلة . كل هؤلاء يملكون الإبل فتعساً لها وبعداً لمن ملكها !

وكان شيبوب قد أفرغ كأسه فقال فى مرح :

— لو كنت أنا عنترة لقصدت إلى بنى شيبان فنزعت عبلة من بين ظهرانيهم وخرجت بها إلى البر كما يخرج الأسد بفريسته .

فقال عنترة متحركاً فى ضجر :

— بل أذهب إليها لكى أذرف دمعى ، وأدفق لها ما بقلبى ، لعلها ترضى عنى ، لقد كدت يوماً من الأيام أهم بأن أفعل ما تذكره الآن ، فلقد كنت حريصاً على أن أفوز بعبلة . ولكنى لا أنظر اليوم إلى أن أفوز بها . لقد بلغت منى فوق ما يبلغ النساء من الرجال . فأنا لا أطمع

اليوم فى أكثر من أن أسترد رضاها .

ولاحت عند ذلك سحابة من الطير تضىء بشعاع القمر مممة نحو الشرق ، فقال عنترة وهو ينظر إليها :

— ليت لى جناح هذا الطير فأذهب حيث شئت وأتنقل مع سرعة خاطرى إلى حيث تتوق نفسى . بل ليت لى مثل جناحها فأحلق فوق هذه الأرض لكى أرنو إلى عبلة من السماء قانعاً بنظرة أصيبها كل يوم منها .

وسكت لحظة ثم قال فى صوت حانق :

— بل ليتنى صاعقة فوق سحابة فى عاصفة هوجاء فأقذف الموت على هذه الأرض فلا أبقى عليها غير عبلة يا شيبوب . إن كل الناس لا يزالون ينظرون إلى كما ينظرون إليك . إننى ابن زبيبة الأمة حتى وإن نسبنى شداد إلى عبس .

فقال شيبوب ضاحكاً :

— أما أنا فلست أبالى كيف ينظرون إلى .

فقال عنترة فى رفق :

— لقد كدت أحسدك على ما أنت فيه يا شيبوب . فإنى ما زلت حيث كنت بعيداً عن سعادتى ، كنت من قبل أمحها أمامى وهى لا تزال أمامى كأنها تهرب منى كما يهرب الجبان الذى يركب مهراً سريعاً . لم يكن الرق هو الذى يحول بينى وبين سعادتى . ليس الرق سوى

لفظ يستّرون به ما فى نفوسهم من الكبرياء . ليس الرق هو الذى كان يشقينى ، بل هو الوهم الذى يرضى به الضعفاء أنفسهم ويستّرون به ضعفهم . فهم لايجدون ما يميزون به أنفسهم ولاما يسمون به إلى المكارم ، فيأبون إلا أن يهبطوا بمثلى إلى ما دونهم ، حتى يلوحوا فى الأعين أعظم من عنترة .

فقال شيبوب وهو يملأ كأسه :

— أنت تحس الذل لأنك تحتاج إليهم . إن هذا الغل الذى تضعه حول عنقك هو الذى يذلك ، وليس ما تحسبه من كبريائهم . إن هذا الحب الذى تتحرق فيه لا أسميه أنا إلا الرق والذل . فعجباً منك إذ تقوى على الدماء تسفكها والحروب تخوضها ولا تقوى على قيدك الذى تقيدك به فتاة .

فقال عنترة وهو يجرع كأسه :

— لست ألومك يا شيبوب لأنك لا تحمل مثل نفسى . ولو كان لك قلب لما تحرك إلا كما يتحرك قلبى . أنت تخدع نفسك حتى ترضى بما أنت فيه . فدعنى وشأنى .

فقال شيبوب : إنما العبد من يستمد من الناس حريته . إننى أعيش لنفسى . وإذا نظرت إلى هؤلاء الناس لم أكد أرى منهم أحداً سواك أنت وأمى وإخوتى . وأما سائر الأحياء فإنى أمقتهم وأخدعهم وأخونهم ، ولو استطعت أن أفتك بهم لما ترددت فى الفتك بهم لحظة .

إنني أسرق أحياناً وما بى من حاجة إلى مال أسرقه . وأكذب وليس بى ما يدعو إلى الكذب . وإنه ليسرنى أن أراهم فى ورطة ، وينشرح صدرى إذ أجد عليهم علائم الغيظ . وإنى لأسخر منهم ولا أغضب لأعراضهم ، بل إنى لا أعف عن حرمهم . وإنى لا أخشى الموت ولكنى أضن بنفسى عن الحرب لأنى لا أسخو بنفسى فى حمايتهم . ولولاك أنت لكنت عند الغارات أطعن فى ظهورهم . أما قلت لك إنك لن تجد منهم غير ما أجد أنا ؟ فما الذى يجشمك كل هذه الهموم فى طلب ما لا يجديك معهم نفعاً ؟

فهز عنترة رأسه قائلا :

— إنه قضائى . وليكن لك ما ترى . لست ألومك عل شىء مما تقول ، ولكنى سأذهب إليها لعلى أنظر إلى وجهها ، ولعلى أجد الدمع قد جف من مقلتيها . ولن أزال بهذا الرجل مالك بن قراد حتى أتملق كبرياءه ، ولن أزال بابنه الأحمق عمرو حتى أهدهد غروره . سوف أتذلل حيناً وسوف أبكى حيناً ، ثم سوف أقتحم اللجج والنيران حيناً . سوف أخدم بنى شيبان وأرعى لهم غنمهم وإبلهم كما كنت أرعى غنم شداد وإبله لكى يرضوا بمقامى قريباً منها .

فقام شيبوب وأخذ كأسه فى يده ورفعها قائلا :

— أحمق ورب الكعبة ، إنهم لا يريدون إلا بعدك . وحق مناة لو وجدوا فيك فرصة لزجوا بك فى المهالك حتى لا يروا لك وجهاً .

وأما أنا فإنى لن أعدل بهذه الكأس شيئاً . هى عندى خير من عبلة وكل قومها . أنا أعرف كيف أحيا وكيف أنعم بطعامى وشرابى . أعرف كيف أصل النساء ما وصلتنى ، وكيف أقتنص الوحش ما سنح لى . أما أنت فلا أظنك تحرص إلا على الخيال الذى يصوره لك الوهم . اذهب كما شئت والتمس ما شئت فأنا أحب أن أكون معك ، ولن أتخلى عنك ولن أدع صحبتك . إنك تحبها لأنك تطلب علالة لحياتك . أنت تجد لذتك فيما تأمل وما ترجو وما تسعى له من أمامك . وأما أنا فإنى أجد لذتى فيما أذوق بلسانى وما ألمسه بيدى وما أقارفه فى يومى . أنت تسعى وتتألم فى سبيل وهم باطل ، وأنا أحيا وأتنعم فيما أحسه حقيقة فى يدى .

ثم شرب كأسه وقال وهو يرقص :

هات اسقنى من خمره بالكأس أو بالجره
شقراء مثل الدره عاطرة كالزهره
بنت كريم حره أودع فيها سره
والليل يجلو بدره والنجم يرعى فجره
لكل ليل بكره لكل حى حفره
ما العيش إلا مره

وكان عنترة ينظر إليه باسماً ، حتى إذا ما انتهى من إنشاده قال له :

— لقد كدت يا شيبوب تفتننى . كاد قولك يا شيبوب يقع فى قلبى .

١٠

كان مقام مالك بن قراد وأهله فى بنى شيبان كريماً إذ نزل جاراً عند سيد القوم قيس بن مسعود ، فلم يجد فى جواره إلا العز والمنعة والمروءة الكاملة . ولكنه مع ذلك لم يكن سعيداً ولا راضياً ، لأنه لم ينس أنه رجل من عبس ضاق به المقام فى قومه فاضطر إلى أن يهاجر بأهله ويحل ضيفاً على أصهاره . وكان يتنسم الأنباء عن عبس ، فإذا ما أتت قافلة من الحجاز إلى العراق خرج يسأل أهلها فى لهفة عن إخوته وعن أبنائهم وعن أصحابه الذين طالما شاركهم وشاركوه فى السراء والضراء وفى النصر والهزيمة . وامتلأ صدره بشعور يشبه الندم على أنه ترك وطنه وأهله من أجل عارض عرض له كان أولى به لو صبر عليه أو فسح له من صدره ولم يطع فيه كبرياءه وكبرياء ولده . وكثيراً ما حدثته نفسه بالعودة إلى أرض الشربة والعلم السعدى ، فأفضى برأيه إلى ولده عمرو ، ولكن ولده كان صارماً صلباً فلم يتزعزع عن رأيه ، وبقى على عزمه الأول أنه لن يعود إلى عبس حتى يحل العقدة التى بينه وبين عنترة .

كان عمرو بن مالك لا يكاد يطيق أن يسمع ذكر عنترة ، فإذا ما ذكره أحد أمامه عفواً لم يملك نفسه واندفع فى سخطه عليه لائماً حانقاً . وكان ما يزال مصرًّا على تسميته العبد ابن زبيبة . وقد توثقت الصداقة

بين عمرو بن مالك وبين بسطام بن قيس وكان شاباً فى مثل سنه منعماً جميلا ، يقضى حياته كسائر أبناء السادة فى صيد أو لهو ، فإذا عزم قومه على غزوة سارع إليها وكان فى صدر الكتائب يكسب المجد فى الحرب ليمهد لنفسه سبيل السيادة فى شيبان .

وأفضى بسطام إلى عمرو أنه يريد الزواج من أخته الجميلة عبلة ، فرحب عمرو به لما كان بينهما من المودة ، ووعده أن يكون رسوله إلى أبيه مالك ، ووعده أن يبذل ما فى وسعه ليحمل أباه وأخته على الرضاء ، ودخل عمرو على أبيه فى بيته عشية يوم فقال له :

ــ لقد كنت أحب أن أفضى إليك بحديث يا أبى .

فمد مالك طرف ثوب كان جالساً عليه وقال له :

ــ تعال يا ولدى فاجلس هنا فإنى أحس فى صدرى وحشة منذ الليلة .

فجلس عمرو إلى جانبه وصمت حيناً ثم قال :

ــ أريد أن أحدثك فى شأن عبلة .

فالتفت إليه أبوه قائلا :

ــ وهل لعبلة شأن آخر فى شيبان ؟

فقال عمرو :

ــ وهل يفرغ للبنات شأن يا أبى ؟ أليس هم الأب والأخ أن ينظرا فى أمرهن ؟

فقال مالك :

— لا بعدت يا عمرو ، امض فى الحديث .

فقال عمرو : إلى متى تبقى عبلة بغير زواج .

فقال مالك وقد فاجأه هذا القول :

— أتريد أن تزوجها ونحن هنا ضيوف ؟ أليست هى عبلة ابنة مالك ابن قراد ؟ إنا هنا ضيوف يا ولدى عند أصهارنا ، ولا ينبغى أن يأتى الخاطب إلا إلينا فى ديارنا . ولقد كنت أفكر فى هذا الأمر قبل أن تأتى إلى ، وهو الذى بعث الوحشة إلى صدرى .

فقال عمرو :

— ألست ترضى بسطام بن قيس ؟

فقال مالك فى شبه فزع :

— لقد أضلك الهوى يا عمرو وأراك لا تهتدى . ما سؤالك هذا فيما كنا نتحدث فيه منذ لحظة ؟ إن بسطام بن قيس رضى وابن رضى . وهو خير من تزف إليه بنت سادة أحرار . ولكنى لا أتحدث عن بسطام وكفاءته ، فنحن هنا ضيوف فى غير قومنا ، وما أحرى الناس أن يقولوا قد أخذ قيس بن مسعود عبلة من أبيها . قد يقول العرب إن قيساً طلب عبلة لابنه بسطام ، فلم يستطع أبوها أن يمنعها .

وقد يقول هذا الأسود يوماً إننى هربت بها حتى . . .

فقاطعه عمرو فى حنق :

— وما لنا وذلك الأسود ؟ إنك يا أبت لا تزال تذكره كأنك لا تريد أن تخلى قلبك منه . لقد تركنا له قومنا ووطننا ، فهلا طرحته من نفسك فلا تعود إلى ذكره ؟

فقال مالك :

— كأنى بك تريد منى أن أغمض عينى حتى لا أرى ما هو ماثل أمامى .

فقال عمرو فى حنق :

— إنك لتشعرنى الذلة كل يوم وأنت تلهج باسم عنترة ، كأن صورته قد جاءت وراءنا إلى أرض شيبان لتزعجنا . فما فراقنا أرض عبس إذا كان ذكر عنترة لا يزال معنا ؟ زوج عبلة لبسطام ، فوحق مناة إن عنترة لن يستطيع أن ينطق بعد باسمها .

فضحك مالك ساخراً وقال :

— إنك لم تعرف عنترة يا ولدى كما عرفته . لست أدافع عنه ولست أحبه ، بل إنى أمقته مقتاً لا تستطيع أنت أن تحسه . إننى أمقته ولو قدرت على أن أورده المهالك لما ترددت لحظة فى أن أورده . ولكم حاولت أن أرده عن عبلة بالمكر والخديعة والمؤامرة حتى شاع كرهى له وعجزى عنه . ولكنه يحب عبلة يا ولدى . ولن أستطيع أنا ولن تستطيع أنت ولا أحد من عبس أو شيبان أن يكمم فمه عن النطق بها وإنشاد الشعر فيها .

وأطرق حزيناً صامتاً .

فتحرك عمرو فى قلق وقال فى حقد :

— إذا كنت أنت يا أبى قد عجزت عنه فدع من يستطيع أن يلقاه يكفيك شره .

فرفع مالك رأسه وقال ساخراً :

— أذلك بسطام بن قيس ؟

فقال عمرو متحدياً :

— نعم ذلك بسطام . إنه يريد عبلة ولا يحجم عن الذهاب إلى أقصى الأرض لكى يأتى إليك برأس ذلك العبد الزنيم .

فضحك مالك وقال :

— أيذهب فى جيش من شيبان لغزو عبس ؟

أهذا ما يريد بسطام ؟

فقال عمرو :

— بل يذهب إليه وحده لينازله ويأتيك برأسه فوق سنان رمحه ، وسوف تكون مفخرة الأبد أن . . .

فقاطعه مالك حانقاً :

— بل تكون مذلة الأبد يا عمرو . سيقول العرب عنى وعنك إننا عجزنا عن عنترة فبعنا عبلة لبسطام حتى ينتصف لنا . ولكن ما بالك تحدثنى عن بسطام وعن عنترة ؟ هذه أختك لا تزال باكية فى صباحها ومسائها لا تذوق للحياة طعماً . أهذا لأنها تكره زواج عنترة ؟

فتحرك عمرو مرة أخرى فى قلق وقال :

— وماذا يعنيك من عبلة إذا كانت تبكى فى صباحها ومسائها ؟ إنها فتاة حمقاء سخيفة ، قد أوحش قلبها من صاحباتها فى عبس .

فقال مالك فى حرارة :

— لقد عرفت ابنتى عبلة ، وما أحب لها أن توصف بالحمق والسخف . إنها زينة فتيات عبس ، وليس فى قبائل العرب فتاة تعدلها عقلا ولا أقول حسناً .

فقاطعه عمرو فى حنق :

— ألم تكن هى التى أطمعت عنترة فينا ؟ ألم تكن هى التى جرأته على التطلع إليها ؟ أليست هى تهواه وترضى أن يكون العبد ابن زبيبة زوجها ؟

فصمت مالك وجعل ينكت الأرض بقضيب صغير من الطرفاء فى يده .

واستمر عمرو يقول :

— وليس أدل على حمقها وسخفها من أنها لا ترضى ببسطام ابن قيس زوجاً لها .

فصاح مالك فى دهشة :

— أعرضت عليها زواج بسطام ؟

فقال عمرو :

— بل ذكرته لها أمى فى ثنايا حديثها . فأعرضت عنها وبكت وقامت إلى مخدعها فاعتكفت به .

فقال مالك فى حزن :

— إنكم تعذبون الفتاة وحق مناة . وما لكم تريدون أن تكرهوها على زواج من لا ترضى ؟ لقد آليت على نفسى أن أجعل أمرها لنفسها . ألا تذكر يوم أن عرضت عليها عمارة بن زياد ؟ ألم تقل لى إنها لا ترى إلا ما يرى أبوها وأخوها ، وإن كانت لا تحب الزواج من عمارة ؟

فصاح عمرو :

— وإذا كانت لا تريد سوى عنترة ؟

فتردد مالك حيناً ثم قال :

— وأين عنترة اليوم منها ؟

فقال عمرو :

— إنك إذا كنت لا تريد تزويجها إلا بمن تريد هى فإنها لن ترضى بغير عنترة .

فصمت مالك لحظة ثم قال :

— إن فى العرب من يرضيها .

فقاطعه عمرو قائلا :

— فإذا كانت لا ترضى إلا بعنترة . أتزوجها له ؟

فقال مالك فى ثبات :

— أزوجها له .

ثم وضع وجهه بين يديه كأنه يواريه من معرة .

فصاح عمرو فى حنق :

— إذن فلن يبقى هذا العبد لكى يمزج دماءه بدمائنا ، ويحمل نسلنا أبد الدهر عاره .

واندفع خارجاً من الخيمة ذاهباً إلى منازل قيس بن مسعود .

وتحرك فى تلك اللحظة شبح فى الظلام من وراء الخيمة فتسلل إلى الخيمة التى تليها وكانت خيمة عبلة فأتى إليها من جانبها زاحفاً فى سكون ، وجعل يتسمع حيناً ، ثم رفع طرف الخيمة وأطل برأسه فى داخلها مترفقاً حذراً . فلما اطمأن إلى أن ليس بالخيمة أحد يخشاه همس قائلا :

— عبلة ، لا تراعى فأنا شيبوب !

فقالت عبلة فى صيحة مكتومة :

— ويحك يا شيبوب ، أأنت هنا ؟

وقامت إليه تهمس :

— متى جئت ؟ وفيم سعيت ؟ وهل جئت وحدك ؟

فقال شيبوب :

— جئت الساعة وتجسست على أخيك وأبيك وهما يسبان عنترة . ثم جئت لأخبرك أن عنترة قريب من هنا . وقد جاء يعتذر إليك ويطلب عفوك . إنه لا يكاد يذوق طعاماً ولا يشرب إلا الخمر لكى يغرق فيها

همه ، ولا يفتأ يلهج بذكرك فى نهاره وفى ليله .

فقالت عبلة فى نغمة حزن :

— أما كفاه طردى وتشريدى ؟ أما كفاه غربتى وتعذيبى ؟ هل آتى ليعيد على أذنى تقريعه وتعنيفه ؟ ومع ذلك كله فقد نسينى ولم يعد يذكرنى . إنه اليوم لا ينشد الشعر إلا فى شكوى زمانه وفى ذم قومى .

فقال شيبوب :

— بل هو لايفتر عن الإنشاد باسمك فى كل صباح وكل مساء . إنه يجعل ذكرك غذاءه الذى يتغذى به ، وسمره الذى يؤنسه . وهو طربه إذا سكر وبكاؤه إذا صحا . إنه لا يعيش إلا على ذلك يا عبلة .

فوضعت عبلة رأسها بين يديها وجعلت تبكى وقالت فى تهافتها :

— وأين تركته يا شيبوب ؟ قل له يعد من حيث أتى . فإن القوم هنا أعداؤه وكلهم يتمنى أن يراه معفراً فى التراب .

فقال شيبوب مسرعاً :

— لن أستطيع رده عن رؤيتك يا عبلة . لن أستطيع رده إلا إذا استطعت أن أرد السيل المتدفق أو الصخرة المنحدرة من قمة الجبل .

وسمع عند ذلك صوت أقدام فهمست عبلة فى خوف :

— أسرع يا شيبوب فاخرج .

فأسرع شيبوب زاحفاً من جانب الخباء ، ولكنه تعثر فلم ينج حتى دخل عمرو بن مالك فلمحه ، وصاح بأخته فى غضب :

— من يكون هنا يا عبلة ؟

فصاحت به عبلة :

— إنه أحد بنى شيبان جاء إلى خبائى . أهذا يسل حقدك على ويطمئن فؤادك ؟

ووجد شيبوب أنه إذا أسرع هارباً ترك عبلة وحدها لغضب ذلك الفتى المتجبر ، فزحف راجعاً حتى دخل الخباء ، ووقف أمام وجه عمرو وقال له :

— لعلك تعرف من أنا يا عمرو بن مالك . لعلك تصرف غضبك إلى أنا . فأنا الذى جئت إلى هنا ، وتجسست عليك إذ كنت تشتم أخى وتتمنى له الهلاك . وأنا الذى كنت دخلت إلى خباء أختك خفية من تحت الأستار لأحدثها . فاصرف غضبك إلى فإنى أعزل .

فصاح به عمرو :

— وفيم جئت إلى هنا أيها العبد ؟ أما وجدت فى صحبة أخيك خيراً فجئت إلينا لتعكر علينا مقامنا فى شيبان ؟

فقال شيبوب :

— أما وقد ذكرت مقامك فى شيبان ، فإنك أنت الذى سعيت إلى التغرب هرباً من أن يكون لك شرف المقام فى قومك . أتهرب خوفاً من أن يكون صهرك عنترة الذى يفخر العرب جميعاً بأن يكون بينهم ؟

فصاح عمرو :

— وحق مناة أيها العبد لتجدن هنا عقوبتك . ولو كنت من أنداد الأحرار لأعطيتك سيفاً وبرزت إليك فى البراح لأعاقبك على جرأتك . ولكن انتظر .

ثم التفت نحو عبلة وصاح بها :

— هاتى حبلا يا عبلة حتى أشد وثاق هذا العبد .

فقهقه شيبوب وقال :

— لست فارغاً لك اليوم يا عمرو بن مالك . فانتظرنى أنت حتى أعود إليك يا بن الأحرار . سوف أعود إليك قريباً فلست أحب أن يطول انتظار عنترة .

ثم انطلق خارجاً من الخباء ، ولم تمض لحظة حتى كان خارج المنزل يعدو فوق الرمال كالظليم[1] .

---

(١) الظليم : فرخ النعام وهو سريع العدو .

١١

قضت حلة قيس بن مسعود ليلتها فى اضطراب عندما علمت بأن بسطام بن قيس قد خرج يسعى إلى لقاء عنترة . فقد أعلمه عمرو بن مالك بقدوم عنترة وزين له أن يخرج إلى ذلك اللقاء .

وكان بسطام بن قيس فارس شيبان وفتاها ، ولكن لقاء عنترة لم يكن كلقاء الفرسان . وقد كان أبوه يحرص على بقائه ليكون أمير القوم بعده ، وكانت أمه التميمية تحاذر عليه وتخشى أن تصيبه الكوارث ، فقد كان لها فتى وحيداً نشأ فى بيتها مدللا حتى كره أبوه تدليله ، وغضب عليها لأنها كانت تنشئه بين النساء والفتيات ، لا تعرضه للمشقة وتشفق عليه من مخاطر الفتيان . وهم قيس يوماً أن يوقع بها وبه خوف أن يشب الفتى طريًّا ضعيفاً وهو أكبر ولده . فلم يحمه من غضب أبيه إلا أن بعثت به أمه إلى إخوتها فى تميم ، فأخذ يخرج مع فتيانهم إلى الصيد والغزو ، حتى شب فارساً بارعاً لا يرهب نزالاً ولا يتردد فى صدام . فلما عاد إلى قومه شيبان لم يلبث أن ظهر فيهم وتكشفت لهم فروسيته وصاروا يهتفون باسمه كلما ألمت بهم نازلة .

ولكن الجزع داخل أباه وأمه وعم كل قومه عندما ذاع بينهم أنه قد خرج إلى عنترة ، عازماً ألا يعود حتى يقهر منافسه الذى جاء ينتزع منه عبلة.

فخرج قيس بن مسعود فى أهله لاحقاً بابنه ، لعله يدركه قبل أن يصطدم بذلك الفارس المخيف الذى عرفوا جميعاً أن الاصطدام به موت غير مردود . ولم تطق أمه البقاء خلفهم فسارت معهم متلهفة تبكى كأنها قد ثكلته .

وطلع الصباح عليهم وهم يسرعون فى الطريق يتعقبون آثار بسطام ، لعلهم يدركونه قبل النزال . وأراد عمرو بن مالك أن يخرج معهم ، فرده قيس فى شىء من العنف لأنه هو الذى زين لابنه الخروج للقاء غريمه المخيف . وقد عزم قيس فى نفسه إذا عاد إلى منازله أن يرد جواره عن مالك وأهله حتى يخرجوا عن قومه تشاؤماً بمقامهم بين ظهرانيهم . وحميت شمس النهار وكانوا لا يزالون يضربون فى الصحراء على غير هدى ، فقد كان سيرهم بطيئاً وهم يتتبعون آثار فرس بسطام فوق الأرض الصخرية الصلبة . وتشتت العبيد فى شعاب الطريق لعلهم يعرفون موضع سيدهم فكانوا يعودون واحداً بعد واحد بعد أن يوغلوا فى جوانب الفلاة فلا يهتدون إلى يقين .

وكادت الشمس تتكبد السماء عندما عاد أحد العبيد مسرعاً يلوح بردائه فى الهواء . فأسرع ركب قيس إليه فصاح العبد من بعيد :

— أبشروا بسلامة بسطام .

فصاح قيس بن مسعود :

— أوَ قتل عنترة .

فصاح العبد :

— بل لم يقتله عنترة .

ولما وصل العبد إليهم حدثهم عن سيده . فقال إنه قد رآه مشدوداً فى وثاقه عند عنترة ، ولكنه كان سليما لم يصبه شىء فى النزال . ثم قص عليهم قصته .

ذهب بسطام إلى عنترة فى أول الصباح . فناداه ودعاه إلى قتاله وحاول عنترة أن يدفعه عنه قائلا إنه لم يأت إلى شيبان مغيراً ولا عدواً ، ولكن الفتى أصر فى عناد وأقبل عليه شاهراً رمحه يرتجز له مفاخراً .

فلم يملك عنترة إلا أن يبرز له ، ولكنه طاوله واقتصر على الدفاع عن نفسه حتى أصابه منه جرح فى ذراعه فصاح به :

— أما كفاك أن جرحت عنترة ؟

فصاح بسطام مباهياً :

— بل جئت أطلب رأسك أيها العبد لأعود به على سنان رمحى .

فملك عنترة غضبه ومضى فى قتاله مدافعاً مطاولا ، فما كان يجب أن يقتله وعبلة مقيمة فى شيبان . وما كان يجب أن يعود أدراجه بغير أن يلم بأرض شيبان ليرى عبلة فيها ويطلب عفوها ويستعيد رضاها .

فما زال بالفتى حتى استطاع أن يدفعه بزج رمحه دفعة أطاحته عن فرسه ، ووقف فوق رأسه بسيفه مجرداً .

فنظر بسطام نحوه ساكناً يتوقع منه طعنة تنفذ فى صدره ، أو ضربة

تحز رأسه ، ولكن عنترة قال له :

— قم أيها الفتى واستأنف قتالك إذا شئت فإنى لا أجهز على صريع .

فقام الفتى يجمع نفسه وهو حانق والخجل يزيده حرصاً على النزال . وقال له فى غضب :

— ويلك أيها العبد .

فقال عنترة :

— وما الذى يحملك على قتالى أيها الفتى ؟ إنك تحرضنى على الغضب وأنا أكره أن أقتلك .

فقال بسطام :

— أغرك أن وجدت منى غرة فتريد بها أن تذلنى . أتطمع أن يتحدث العرب أنك عفوت عنى ؟

فقال عنترة :

— بل قم إلى فرسك فاستأنف قتالى .

وكان جرح عنترة يشخب[1] دماً . فشق شملته وربط بها الجرح ثم ركب واستأنف القتال ، ولكنه عاد يدافع الفتى ويطاوله ، حتى وجد منه فرصة أخرى ، فدفعه بزج رمحه فطرحه عن فرسه حتى تدأدأ[2] على الرمل صريعاً ، ووقف عنترة مرة أخرى عند رأسه والسيف فى يمينه قائلا :

— أيسرك أن أحز رأسك حتى لا أباهى بإذلالك ؟

---

(١) يشخب : يتفجر .

(٢) تدأدأ : تدحرج .

فوقف الفتى ونظر إليه حيناً فى صمت ثم قال :

— ألا تخبرنى ماالذى يدعوك إلى مدافعتى فى القتال ومطاولتى ؟ لقد عرفت أنك لا تريد قتلى فكان ذلك سبب هزيمتى . ولو رأيتك تحرص على أن تضع رمحك فى مقاتلى لاستمت فى قتالك وانتصفت منك . إنك أيها الرجل قد خدعتنى عن نفسى .

فقال عنترة فى هدوء :

— لم أخدعك لأننى لم أحب قتلك .

فقال بسطام :

— وكيف وقد خرجت لا أريد إلا قتلك ؟

فقال عنترة ؟

— إنما أتيت أقطع الصحراء إلى منازل أبيك يا بسطام ، لا أرجو إلا أن أكون صديقاً . جئت لأرى ابنة عمى وأطلب عفوها وأتذلل لها .

فقال بسطام :

— وما لحاجتك فى الزواج ممن لا يرضونك صهراً ؟ أأنت تحبها أم تريد أن تشرف بزواج ابنة مالك بن قراد ؟

فقال عنترة فى هدوء :

— إنك أيها الفتى تنطق بغير لسانك . ولست أحب أن أطيل معك الحديث . فهل تريد أن تستأنف قتالى ؟

فقال بسطام منكسراً :

— لا أريد أن يسخر الناس منى . أتعفو عنى مرتين ثم أقاتلك ؟

فنظر عنترة إلى أخيه شيبوب وقال له :

— أوثق يا شيبوب أسيرى .

ثم مضى عنه وشيبوب يشد يديه وقدميه بالحبال .

ولما أتم العبد تلك القصة التى سمعها من شيبوب ، قال له قيس ابن مسعود متجهماً :

— سر أمامنا حتى نصل إلى عنترة .

وما هى إلا ساعة قصيرة حتى بلغ الركب خيمة عنترة ، وكان شيبوب عند بابها جالساً . فهب للقاء القوم فنظر إليه قيس قائلا :

— أأنت عنترة ؟

فضحك شيبوب وقال :

— بل عنترة أخى . أأنت قيس بن مسعود ؟

فقال قيس عابساً :

— أنا قيس وقد جئت لأرى ولدى .

وكان عنترة قد سمع الحديث ، فخرج إلى القوم ، ونظر إلى الشيخ قائلا :

— مرحباً بشيخ شيبان .

وانفرجت أسارير قيس عندما وقعت عينه على عنترة .

وأدخله عنترة إلى خيمة ابنه وقال له :

— هذا أسيرى أيها السيد فحله إن شئت بيديك . ما كنت أريد قتاله فسله عنه وعنى .

ثم خرج وتركه لكى يسمع من ولده وصف ذلك القتال .

وخرج قيس من الخيمة بعد حين وبسطام يسير وراءه . فأقبلت أمه عليه صائحة :

— ولدى :

ثم احتضنته وقبلته بين عينيه .

وذهب قيس نحو عنترة فمد إليه يده قائلا :

— أتحب أن تكون ضيفى ؟

فصافحه عنترة قائلا :

لقد جئت إليك يا سيد شيبان لائذاً .

وركب الجمع عائداً إلى منازل قيس ،وكانت الشمس تميل إلى الغروب عندما نزل قيس مع عنترة فى بيته الفسيح . وأمر بأن تعد وليمة للضيف الكريم .

١٢

أقام عنترة فى بنى شيبان مكرماً ، وكان قيس بن مسعود ينصره ويقيم حجته على مالك بن قراد . ولم يستطع عمرو أن يحجبه عن أخته عبلة بعد أن خاب سعيه فى أن يجعل بسطام بن قيس حائلا بينه وبينها .

ولم يستطع مالك أن يرد عنترة عن خطبة ابنته بعد أن ملكها أمرها فاختارت ابن عمها . ولكن عمرو بن مالك كان لا يفتأ غاضباً حانقاً ، فأبى إلا أن يطلب أبوه من عنترة مهراً غالياً . واجتمع عنترة بعمه ما لك وابنه عمرو فى بيت قيس يتحدثون فى زواج عبلة فقال عمرو لأبيه :

— إنك هنا فى شيبان غريب وسوف يتحدث العرب عنك أنك خضعت لعنترة عجزاً وذلاً .

فقال عنترة :

— كنت أحب لو قلت لك يا بن عمى .

فصاح مالك :

— قلها ولا تخش يا عنترة ، فأنت ابن شداد .

فقال عمرو :

— وما يمنعك من ذلك وقد أبيح لك كل ما كان عليك حراماً .

فقال عنترة :

— لقد كنت يوماً أغضب كلما سمعتك تقول مثل هذا . ولكنى

يا عمرو لا أحب اليوم أن أغضبك . وددت لو رضيت بأن أناديك « يا بن عمى » لكى أستل منك هذا الحقد الذى يملأ قلبك ، إن قلبى لا يحمل لك إلا ما يحمل لآل قراد .

فأدار الفتى وجهه فى غيظ وقال :

— وا ذل آل قراد !

فصاح به أبوه :

— أما إنك منذ اليوم تجبهنى [1] فى مجلسى .

ثم اتجه إلى عنترة قائلا :

— لاعليك يا عنترة من هذا ، فإنه ما زال يجرعنى من حمقه مايجرعنى .

فقال عنترة :

— بل أحب أيها العم أن يتشدد عمرو فى خطابى . إنه يزعم أن العرب سوف تتحدث بأنك قد رضيت بى مكرهاً . وهو يزعم أن عنترة يعجز عن أن يغلى لك المهر كما أغلاه لك السادة وأنت فى عبس . إنه قد صدق . ولن أرضى إلا أن يكون مهر عبلة أغلى المهور .

ثم اتجه إلى عمرو وقال فى هدوء :

— قل واحتكم يا عمرو فإنى عندما تريد .

فقال قيس بن مسعود :

— لقد أنصفك عنترة يا عمرو بن مالك .

---

(١) تجبهنى : تلقانى بما أكره .

فنظر عمرو إلى الشيخ وقال فى تحد :

ـ لقد بذل عمارة ألفاً من النوق العصافير مهراً لعبلة .

فصاح الشيخ فى دهشة :

ـ وهل يملك عمارة النوق العصافير .

فقال عمرو :

ـ لقد رضى بأن يهب كل أمواله ليشتريها .

فقال قيس :

ـ أيبيعها الملك النعمان؟ ليس فى العرب من يملك منها ألف ناقة إلا الملك النعمان . وقد كذب من ادعى أنه يستطيع أن يمهر فتاة بألف منها .

فقال عنترة :

ـ أما وقد نطق عمرو بهذا فلن أرضى بغيره مهراً . سوف أمهر عبلة ألفاً من النوق العصافير .

فالتفت إليه الشيخ قيس بن مسعود فى دهشة وقال :

ـ إنك تطلب يا عنترة المحال .

وكان مالك مطرقاً فى أثناء هذا الحديث فاتجه إليه قيس وقال له :

ـ كأنى بابنك يحتكم بما لا يطاق .

فقال مالك :

ـ ولكن عنترة قبلها . ولن أرضى يا أبا بسطام أن تتحدث القبائل بعجزى .

فقام عنترة إلى قيس فمد له يده قائلا :

— لك شكرى أيها الشيخ على فضلك وإكرامك ، ولن أعاود عمى فى حكمه ولن أعود إلى طلب عبلة إلا إذا كان ما يطلب من المهر فى يدى .

ولم يرض عنترة أن يبقى فى شيبان بعد ذلك ، فانطلق من ليلته مع أخيه يقصدان أرض العراق ليأتى بالنوق العصافير . ولكنه قبل أن يفصل من منازل شيبان عرج على بيت مالك ليودع عبلة . ولما أراد السير فى رحلته قالت له عبلة هامسة :

— سوف أنتظرك حتى تعود وإن طالت غيبتك .

فقال لها عنترة :

— وسوف أحفظ كلمتك هذه فى سويداء قلبى ، فتكون المخاطر أشهى الأمور إلى نفسى .

فنظرت إليه بعينين دامعتين ومدت يدها إليه بصرة صغيرة . فأخذها عنترة فى لهفة فإذا هى تميمة كانت منذ الصبا فى قلادتها .

فوضعها عنترة عند شفتيه ثم قال :

— لن يصيبنى شر ما دامت هذه معى .

وانطلق إلى راحلته فركبها ، وكان يلتفت بين حين وآخر إلى ورائه ناظراً إليها وهى واقفة عند باب الخباء حتى غابت عنه المنازل ، فوضع التميمة على شفتيه مرة أخرى ثم شدها على ذراعه اليمنى وقال لشيبوب :

— انطلق يا بن أمى ، فوحق مناة لن يصيبنى شر ما دامت هذه التميمة فوق يمينى .

١٣

خرج عنترة إلى العراق يطلب المهر الذى طلبه أبو عبلة من النوق العصافير التى كانت عند الملك النعمان . ولم تكن فى قبائل العرب قبيلة تملكها . كانت بيضاء مثل وعول الجبال، خفيفة كأنها الغزلان ، طيبة الألبان كالبقر ، حلوة المنظر كالمها ، طيبة اللحم كأنها الحملان .

وسار عنترة يضرب فى الصحارى نحو العراق وصورة عبلة ماثلة أمام عينيه عند كل ثنية وعند كل مرقب ؛ وما كان أحب إليه من تلك المخاطرة الجريئة التى اعتزم أن يخاطر بها . كان كلما فكر فى المخاطر التى يتعرض لها فى سبيل الحصول على مهر عبلة أحس سعادة كبرى لأنه كان يشعر أنه يقتحم مجداً جديداً يسمو به إلى الحبيبة التى كان لا يرى فى الحياة شيئاً يستحق أن يحرص عليه إلا حبها. وكان فى أثناء سيره فى الصحارى الجاهمة يردد كلمات عبلة التى قالتها له وهى تودعه أمام بيت أبيها فى بنى شيبان إذ قالت له « سوف أنتظرك حتى تعود وإن طالت غيبتك » وكان بين آن وآن يلمس بكفه الأيسر موضع التميمة التى شدها على ذراعه فيشعر كأن روحاً يسرى فيه فيهزه ويملؤه قوة .

وكان يعيد كلماتها التى سمعها منها وهى لا تزال مسطورة على قلبه ، يدخرها كأثمن الكنوز ، كما يدخر المقطوع فى الصحراء بقية من الماء

وجدها فى الأحواض البراقة الملساء فى بطون الجبال ليطفئ بها حرور الهجير . وكان يتمثل صورتها ونظراتها العاطفة نحوه وهو يثب على فرسه الأبجر ، فكأنه سائح ضل السبيل فى مهمه قفر فى ليلة ظلماء فطلع عليه القمر يهدى سبيله . كانت صورة بسماتها ونظراتها تتردد فى قلبه كأنها الأغانى تحدو له سيره فى الطريق الوعر ، وتقصر عليه مسافة السفر الطويل . كان يقوى بها نفسه إذا جهده الحر ، ويغذى بها روحه إذا أمضه الجوع ، ويجعلها سمره إذا شرب الخمر ، وحديثه إذا جلس إليه أنحوه وصاحبه شيبوب .

ولكنه ذهب إلى العراق يطلب مطلباً عسيراً ، إذ أقدم على مراعى النعمان وأراد أن يستاق منها ما شاء من الإبل العصافير . فما هو إلا أن أحس الرعيان به حتى أرسلوا النذر إلى الملك العظيم فى الحيرة . واستاق عنترة الإبل وجعل يضرب فى أعجازها مسرعاً نحو الصحراء ، ولكن الملك أدركه فى كتيبة من الفرسان فأحاطوا به وبالنوق التى استاقها . وكانت معركة هائلة بين فارس مستيئس وجيش لجب من الشجعان . فلم يستطع إلا أن يقاتل ما بقى السيف فى يده وما استقام الرمح فى قبضته . ولكن الرمح انقصف والسيف تحطم فوق الدروع السابغة ، وأثخنته الجراح فخر صريعاً ، وحمل إلى الحيرة بين الموت والحياة .

ورآه شيبوب يقاتل وسط الحلقة المائجة المخيفة فلم يقدر على أن ينصره . وعجز عن أن يخلص إليه إذ كان الموت يحول بينهما . ورأى

السيوف تلمع والرماح تتعانق فى معركة مروعة ، فلم يجد خيراً له من أن يندس بين الصخور يرقب القتال من بعيد . ثم رأى عنترة يخر عن جواده صريعاً ، فزحف متوارياً بين الحجارة حتى بعد عن ميدان المعركة ، ثم جعل التلال بينه وبين مجال الموت وأطلق ساقيه للرياح عائداً إلى الحجاز .

ألقى عنترة فى سجن النعمان فأقام فيه ليالى ما كان أطولها . فكان يتوجع من جراح جسمه وجراح قلبه أشد ألماً . وكان أشد ما أصابه أنه خاب فى أن يحوز مهر عبلة ، وأنه قد حيل إلى الأبد بينه وبينها . وكان شعاع ضئيل من النور يدخل إليه فى سجنه متردداً من فرجات ضيقة بين قضبان الحديد ، فكان صدره يضيق ، ويهم بأن يحطم رأسه فى الجدار المصمت الرطب الذى يملأ قلبه يأساً . وكان ينظر إلى النجوم إذا طلعت فيناجيها ويرى صورة عبلة فى نورها ، ويستعيد نظراتها وبسماتها فى لألائها ، ويسمع فى نجواها أصداء صوت عبلة العذب ، ويرسل على شعاعها تحيات يائس لعلها تصل إليها . ولكنه كان كلما رأى تميمة عبلة فوق ذراعه عاد الأمل إليه فملأ قلبه قوة .

ومضت عليه تلك الأيام الطوال ثم أرسل إليه النعمان يطلبه للمثول بين يديه ، بعد أن التأمت جروحه واستطاع أن يسير على قدميه . وكان النعمان شديد الشوق إلى رؤية ذلك الرجل الذى جاء إليه وحده غازياً ، وحمله التحس أو دفعه الغرور إلى أن يطلب المحال ويجرؤ على استباحة حماه . فقد كانت تلك أول مرة أقدم رجل من العرب على غارة مثلها وهو وحده ، ويعلم أنه يطلب مطلباً وعراً .

وأدخل عليه عنترة مقيداً فى سلاسله ، وكان شيوخ تغلب وبكر يجلسون حول الإيوان ، والملك جالس فوق عرشه . وارتفعت العيون نحو عنترة وهو داخل يحجل فى القيود ولونه حائل من أثر السجن والهموم . وكان الغضب بادياً على وجه القوم ، والملك يحاول أن يمسك نفسه حتى يسمع قول الأسير قبل أن يوقع به العقاب فتأمله ساعة قصيرة وهو صامت ثم قال له :

— من أنت أيها البائس ؟

— فقال عنترة هادئاً :

— أنا أسيرك وترانى أمام عينيك .

فسرت همهمة فى الجلوس وقال الملك فى غضب مكبوح :

— أسألك عن نفسك أيها الرجل . أسألك عن قومك إن كان لك قوم . وما أحسبك إلا عبداً آبقاً .

فقال عنترة رافعاً رأسه :

— إنما العبد غيرى .

فقال الملك متعجباً :

— أما تعرف ما فعلت ؟

فقال عنترة :

— وهل ترى رجلا يتخبط فى الجنون ؟

فقال الملك :

— إنك امرؤ بين الجنون والحماقة .

فقال عنترة :

— أتسمع منى هذراً ؟ لقد جئت إلى حمى النعمان لأستاق ألفاً من نوقه العصافير .

فقال الملك حانقاً :

— بل أرى أعجب من الحمق والجنون . إنك رجل واحد تأتى من أقصى الأرض لكى تسوق إبلى . أكنت تحسب أنك تنجو سالماً ؟ أكنت تحسب أن لن يرد كيدك أحد ؟ لأقطعن أعضاءك ولأقذفن بك إلى حيث ينبغى لمثلك أن يلقى .

فقال عنترة مبادراً :

— كفكف أيها الملك غضبك فلست تأمن مثلى أن يرد عليك قولا بمثله . كيف أخشى وعيدك وأنا فى يدك ؟ بل كيف تهدد رجلا تراه يرسف فى الأغلال بين يديك ؟ إنه ليحق لى أن أعجب منك أيها الملك إذ ترانى فى أيدى حرسك ثم تهددنى . ولو شئت أن أرد عليك قولا بمثله لكان مجال القول متسعاً . فما كان ينبغى لمثلك أن تأتى بى إلى مجلسك وتجمع هؤلاء الشيوخ حولك لكى تهددنى بتقطيع أوصالى والمثلة بجسمى. فهل يمنعنى مانع من أن أركب معك أوعر الوعر فى الخطاب وأنا يائس من الحياة ؟

فاربد وجه الملك وقال :

— لص جرىء .

فقال عنترة مندفعاً :

بل مغير أتى يطلب عندك الغنيمة .

فقال النعمان :

— ألك ثأر عندى ؟

فقال عنترة :

— بل جئت إليك كما قلت أطلب نوقك العصافير كما يطلب الأسد صيداً .

فقال الملك ساخراً :

— إنه لزهو أجوف . قل إنك جئت كما يجيء لص أحمق .

فصاح عنترة .

— بل أنا أحد هؤلاء العرب الذين يطلب بعضهم إبل بعض فى الغزوات . فما أنا أيها الملك وما أنت وما هؤلاء الشيوخ جميعاً سوى عرب يترددون بين الأودية فى نجد وتهامة وهضاب الدهناء واليمامة وكلهم يسلب ويغزو . لست باللص أيها الملك إذا لم تكن أنت لصًّا ، وإذا لم يكن هؤلاء جميعاً لصوصاً . أليس هذا رد قولك ؟

فسرت غمغمة عالية من حول الإيوان وقال الملك فى غضب :

— اقصر عن البذاءة لا أم لك . وحدثنى إذا لم تكن لصًّا ما شأنك ؟ أبعثك أحد على عيناً ؟ أم استأجرك بعض أعدائى ليتحدث الناس بجرأتك على فيغض ذلك من قدرى؟ قل واصدقنى ولك منى حياتك إذا صدقتنى .

فقال عنترة ساخراً :

— لم أقدم على حماك وأنا حريص على حياتى . إنما جئت إليك لأستاق إبلك لنفسى . وما كنت لأتجرأ عليك من أجل أحد يسخر بى .

وما كان مثلى ليدب إليك جاسوساً .

فقال النعمان ساخراً :

— مثلك ؟ ومن تكون إذا لم تكن أحد هؤلاء الصعاليك الذين لفظتهم القبائل لتبرأ من جرائرهم ، فلم تجد سبيلا لك إلا اقتحام المهالك ؟ وإن فى وجهك الأسود لدلالة على صحة رأيى . من أنت أيها الأسود إذا لم تكن عبداً آبقاً ؟

فقال عنترة فى حنق :

— أما وقد ذكرت سوادى فاعلم أيها الملك ما يملؤك فزعاً . ثم تضاءل فى نفسك ومر هؤلاء الشيوخ الذين ينظرون إلى بأعين تقدح الشرر أن يتضاءلوا فى أنفسهم . أنا عنترة بن شداد .

فسرت ضجة فى الجمع وقال النعمان فى صيحة :

— عنترة !

فقال عنترة : نعم أنا عنترة بن شداد فاشكر مناة على أنك استطعت أن تأسرنى . أنا عنترة الذى سمعت عنه وعرفت من هو . إنك سمعت الكثير من خبرى فلا حاجة بى إلى أن أقص عليك حديثى .

فمال النعمان إلى ظهر كرسيه وقال باسماً فى سخرية :

— لو صدقت أيها الفتى لسرنى أن أراك فى القيود أمامى . إنك كنت تفزع الضعفاء وتقطع السبيل وكانت القبائل تضج من اعتدائك. نعم لو صدقت لسرنى أن أراك مقيداً أمامى ، فقد دفعك الغرور إلى أن هممت باستباحة حماى وانتهاك حرمتى . وحق مناة لو كنت عنترة

لقد سعيت إلى هنا لتلقى عقابك .

فقال عنترة ضاحكاً :

— وهل على امرئ من عار إذا أخذ أسيراً ؟ هل على من عار إذا أحاط بى الألوف من جيشك فأثخنونى بالجراح حتى استطاعوا الاقتراب منى ؟ لقد جدلت من أبطالك من جدلت وشردت من شردت وطاعنت حتى لم يبق فى يدى سنان ولا تحتى فرس .

فقال النعمان فى حنق :

— إنك تملأ فمك بأقوال تزعم أنك أهل لها . أنت تزعم أنك عنترة ، فمن لى أن أصدقك ؟ وما أحراك أن تقول هذا كذباً لأجعل لك قدراً .

فقال عنترة ضاحكاً :

— وهذه اخرى منك أيها الملك ما كان ينبغى لك أن تقع فى مثلها . فما الذى يحملنى على الكذب بأن أنتحل اسم عنترة وأنا أعرف أن هذا الاسم لا يحمل لى إلا عداوتك وكراهتك ؟ لقد كنت أطمع فى عفوك لو كنت بعض صعاليك العرب . فقد كنت جديراً أن تعفو عنى إعجاباً بما رأيت من بلائى فى حربك . لقد كان ذلك يطمعنى فى عفوك لعلك تتخذنى سائر الحياة من أعوانك . ولكنك تعلم أن عنترة لا يهب سيفه إلا لعبس ولا يطمع فى النجاة من يد ملك يحمل له ذكرى مواقع أوقع فيها برعاياه وحلفائه . ولست أطمع فى النجاة وأنا أجبهك بقولى فى إيوانك وبين شيوخ قومك .

ثم اندفع كأنه ينشد قصيداً فرفع رأسه وقال مباهياً : لكم كان لقومى من ثارات عندك وعند حلفائك . لكم وطئنا بلاد طيئ ، وكم أخذنا من غنائم البحرين وهجر والعراق ، وكم أغرنا على قوافلك فى الحجيج ولقد كنت أنا فى صدر الكتائب فى كل غزوة أحوز الغنائم وأشتت الجموع .

فقال الملك غاضباً وسط صخب الغيظ من حوله :

— أتفخر على وتزهى بقتالى ؟ لقد كنت أطلبك أيها الشقى لأوقع بك العقاب فانتظر ما تستحق منه . أتفخر على أيها الشقى فى مجلسى ؟

فقال عنترة : إننى أذكر الحق منذ سألتنى . ولست أخشى أن تقتلنى ، فكم قتلت من شجعانك ولم أشعر بخلجة رحمة أو ألم فى فؤادى . لست أطمع فى الحياة وأنا الذى أعرف هوان الحياة .

فقال الملك وهو يحاول أن يمسك نفسه .

— لم أكن لأطيل معك الحديث لولا أننى عجبت منك وأردت أن أطلع على حقيقة أمرك . أليست عبس اليوم من حلفائى ؟ فما مجيئك إلى غازياً إذا لم يكن فى الأمر سر يخفى على فهمى ؟ أجئت تستزيد من الفخر بحربى ؟ أتريد أن تملأ فمك بأنك غزوت النعمان ؟

فقال عنترة فى هدوء :

— لا أيها الملك لم أرد بذلك فخراً .

فقال النعمان :

— إنك فتى خدعك الناس منذ أشادوا بك وتحدثوا عنك ورددوا شعرك . فحملك زهوك على أن تسعى إلى الأسد فى عرينه .

فأجاب عنترة :

— لكم سعيت إلى الأسود فى عرائنها . ولكنى أيها الملك لا أطمع إلى حديث الناس عنى فإنه لم يجدنى اليوم شيئاً .

فقال النعمان فى مرارة :

— ألم يجدك حديث الناس شيئاً ؟ ألم يلحقك أبوك بعبس بفضل هذه الأحاديث ؟ ألم تكن لولا تلك الأحاديث عبد شداد وابن زبيبة ؟

فقال عنترة فى دفعة :

— أتأمن أن أذكر أمك أيها الملك وأنت تذكر أمى .

فعادت الغمغمة الحانقة إلى الجمع حتى رفع النعمان يده عابساً يهدئ الناس ثم قال :

— لابأس عليك يا عنترة فإنها فلتة منى . وما كان ينبغى لى أن أقولها . اغفرها لى يا عنترة فإنها سقطة منى . .

فتحرك عنترة فى تأثر وقال له الملك فى لين :

— قل لى يا عنترة فيم أتيت إذا لم ترد فخراً ؟ فهل بيّت قومك عداوتى فبعثوك لتثير الحرب معى ؟

فقال عنترة : لا أيها الملك إن قومى لا يعرفون أين مكانى . وليس بهم حرص إلا على مودتك وطاعتك .

فقال النعمان : إنك أيها الفتى تحيرنى . فهل أنت مخبرى عن أمرك ؟ أم هو سر لا ينبغى لك أن تطلعنى عليه ؟ أما تطلعنى على الحق ليستقر عليه رأيى ؟

فقال عنترة متردداً :

— أما وقد أبيت إلا أن تعرف الحق فإنى مفض به إليك . أيها الملك ما أتيت إلا لأطلب مهر ابنة عمى .

فقال النعمان فى دفعة : عبلة !

فقال عنترة :

— نعم عبلة أيها الملك .

فتبسم النعمان ومال على كرسيه مرتاحاً وقال : ولم تجد مهرها إلا من إبلى ؟

فقال عنترة : وأنى لى أن أجد النوق العصافير إلا فى مسارحك ؟ هكذا أغلى أبوها المهر وما أشد حرصى على أن يكون مهرها غالياً .

فقال النعمان : وتأخذ مهرها على رغم أنفى .

فقال عنترة : لم أعتد أيها الملك سؤالا .

فقال النعمان : ولو طعنك أحد هؤلاء طعنة نفذت فى ظهرك ودقت عظام صلبك ؟

فقال عنترة : ما كنت إذن سوى أحد من يقتلون فى الحروب .

فقال النعمان فى سخرية : أما كنت تخشى حزن عبلة ؟

فقال عنترة فى غضب : لو غيرك قالها أيها الملك ؟

فقال النعمان : لا أريد أن أغضبك فقل ولا تحجب عنى شيئاً . لقد قلت فى خطابك لى ما لم يجرؤ أحد على قوله فقل ولا تحجب عنى شيئاً .

فقال عنترة : لست أطلب سخطك ولكنى لا أباليه .

فقال النعمان مترفقاً :

— إنما أردت أن أعرف مقدار حبك لها . لقد تحدث الناس عنك وعنها حتى أحببت أن أسمع منك حديثها .

فأطرق عنترة حيناً ثم قال :

— أما وقد أردت أيها الملك أن أحدثك عن عبلة فإن اسمها ليحلو لى إذا سمعته حتى لأحدث به نفسى لأسمعه خالياً . إنها أيها الملك أعز على من حياتى وأحب إلى من جوارحى . ولو كانت حياتى تدفع عن عينها دمعة لحدت بها راضياً . ولو اعترضتنى النيران لخضتها فى سبيل تلبية كلمة منها . صورتها لا تزال تؤنسنى ، ونغم حديثها ما يزال يتردد فى أذنى . لا أعرف خيراً إلا ماترضاه ولا شراً إلا ماتخشاه أو تأباه . ليس فى الحياة جمال عندى إلا إذا كان فيه منها شبه ، ولو طويت لى الأرض لما كان فيها شىء يكافئ رضاها . ولو طأطأت لى السماء حتى تناولت نجومها لأهديها إليها لوجدت ذلك دون قدرها .

وكان النعمان يسمع حديثه مأخوذاً فى دهشة مقبلا عليه بسمعه وبصره ، فلما فرغ من حديثه قال له فى ارتياح :

— إنك تتحدث عنها حديثاً عجباً . لقد سمعت شعرك فيها ولكن قولك هذا أبلغ من الشعر وأطيب وقعاً .

فقال عنترة فى حماسة :

— هذا أيها الملك وصف اللفظ وليس اللفظ سوى آلة ينقل بها الناس ما اعتادوا أن يحسوه من خسيس المعانى . ألا إن ما أحسه فى نفسى لعبلة

يضيق عنه اللفظ . فهو ظل حائل وصدى فاتر لا يصف حقيقة ما أحمله لعبلة .

فقال النعمان فى لين :

— إذن فقد جئت تطلب مهر هذه الفتاة التى شغفت بها .

فنظر عنترة إليه كأنه يريد أن يتبين ما يقصده بقوله ، خاشياً أن يكون قد عاد إلى سخريته . وأدرك النعمان ما يدور فى نفسه فقال مبادراً :

— أتحب أن تعود بالنوق العصافير من بابى ؟

فعاد الهدوء إلى عنترة وقال كأنه يحلم :

— إذن لبقيت لك أبد الدهر شاكراً .

فالتفت النعمان إلى رجل واقف عند رأسه وقال له :

— خذ عنترة معك يا أبا الحارث وامض به إلى بيتك . فك عنه القيود فهو ضيفى .

والتفت إلى عنترة قائلا :

— واغد على أول شىء فى الصباح يا عنترة .

فنظر عنترة إليه متأثراً وصاح باسطاً يديه :

— أيها الملك ، أيها الملك ، لقد غمرتنى .

ثم طوى نفسه وأطرق وأدار وجهه وسار يسحب قيوده وأبو الحارث يسير من ورائه يساعده على المسير .

١٤

بقى عنترة فى الحيرة سنين لم يكن يحسب أنه سوف يقضيها بها . ولقى عند النعمان فى أثنائها مكانة لم يكن يحلم أن الأقدار تجرى بها ، وحاز من الغنى ما لم يكن يخطر بباله ، وبلغ من المجد ما لم يبلغه أحد من سادة القبائل .

أقام تلك السنين فى جوار صديقه الفارس أبى الحارث صاحب النعمان ، وقد أنس إليه منذ عاشره . وكان أبو الحارث يطرب إلى سماع شعره فلا يكاد يخلو منه مجلسه إلا إذا سار فى كتيبة إلى غزوة من الغزوات ، فإذا عاد لازمه فى غدواته وروحاته وفى أماسيه ولياليه . ولم تبخل الأقدار على عنترة بالشرف الأعظم الذى كان لا يناله إلا الأفذاذ من أبطال العرب وأدبائهم بأن تقرب من ملك الفرس كسرى . وكان عنترة بين حين وحين ينظر إلى خلفه ويذكر أيامه الخالية كما ينظر الواقف فوق رأس الجبل إلى الوادى البعيد الذى يراه دونه عند الأفق ، فيراه غائماً غامضاً يحيط به الضباب ولا تبدو منه إلا أشباح ضئيلة تتحرك خافتة مثل أشباح الجن التى طالما ظهرت له أثناء تجواله فى ليل الصحراء . ولكنه كان يرى فى ثنايا ذلك الماضى الجاهر صورة حبيبة لم تستطع الأيام أن تمحوها ، صورة عبلة التى وهب لها قلبه وجعل فيها مناط أمله . وكان لا يفتأ يتذكر

كيف رحل من وطنه يطلب مهرها الغالى ، وكيف دفعه ذلك الحب اليائس إلى اقتحام المهالك حتى جرفته المقادير فأقام بالحيرة هذه المدة الطويلة ، وضرب فى آفاق العراق وفارس ، وحل فى قصور كسرى ، وقاتل مع أقوام لم يرهم من قبل ، وحارب أقواماً آخرين لم يكن بينه وبينهم عداوة ، بل لم يخطروا له من قبل على بال ، فحارب فى سبيل النعمان تارة وفى سبيل كسرى تارة كأنه قد أصبح رجلاً صناعته سفك الدماء . وكان كلما تأمل ذلك الزمن الماضى أحس شيئاً فى صدره يشبه الثورة والحنق ، فإنها الأقدار أقحمته فى عواصفها وهو مرغم لا يكاد يستطيع منها انفلاتاً . وبلغت تلك الثورة مبلغاً جعله يقبل على الخمر لعلها تنسيه ذلك الماضى ، أو لعلها تذهله عن ذلك المجد الذى اشتراه غالياً بحريته ونبض قلبه ، فما كان مقامه عند النعمان ومحاربته أعداءه بأقل فى نظره من الرق وإن كان رقًّا تحيط به هالة كاذبة من زخرف الحياة. وكان كلما فرغ إلى ذكريات حياته الأولى بدا له رقه الأول أهون قيداً وأخف ذلا . كان من قبل يغضب لأنه كان عبد شداد وابن زبيبة ، ولكنه كان لا يحارب إلا لقومه لكى يحمى حرمهم ويدفع الأذى عنهم . كان يحارب ليحمى عبلة وقومها ويحوز الغنائم لكى يتفضل عليهم بها ، ويشتفى بإدراك الثأر من العدو لكى يهتفوا باسمه قائلين « وبك عنترة أقدم » . كان يحارب من أجل عبلة وقومها لا من أجل هذه الأموال التى كان النعمان يغدقها عليه وهذا المجد الذى كان يلقيه إليه أجراً على ضربات سيفه .

وأخذ يحس الملل يدب إليه شيئاً فشيئاً ووجد أن ذكرى أرض الشربة والعلم السعدى تعاوده بين حين وحين فلا يكاد يمر به يوم بغير أن تتحرك شجونه ، فإذا خلا إلى نفسه بعد زحمة اليوم جاشت همومه وساورته حتى جعلت الحيرة تصغر فى عينيه وتضيق به . وهانت عنده الأموال التى حازها والجواهر التى ازدحم بها منزله . وخيل إليه أن تلك الإبل وتلك النوق العصافير التى تعد بالألوف تثقله وتقعد به عن العودة إلى موطن سعادته . وزاد قلقه إلى فراق الحيرة فاستأذن النعمان مرة بعد مرة فى السفر ولكنه كان يدافعه ويتمسك به حتى بلغ الضيق منه مبلغ التبرم ، فزاد إقباله على الخمر يعب منها كل ليلة ما ينسيه ضجره . وأشفق عليه صديقه أبو الحارث فشفع له عند الملك حتى أذن له بالعودة إلى وطنه وما كاد يأذن له حتى سارع إلى الاستعداد وانتظر بقلب واجف يوم الرحيل .

وأعد له أبو الحارث مأدبة فى ليلة الوداع ، اجتمع له فيها شيوخ الحيرة وفرسانها . وكانت مأدبة صاخبة فى غنائها ورقصها وخمرها . وشارك عنترة بإنشاده من شعره وألفى قطعاً منه للفتيات يغنين بها حتى مضى أكثر الليل وذهب الضيوف ولم يبق فى المجلس مع عنترة إلا صاحب الدار .

فقال أبو الحارث :

ــ ألك فى كأس نشربها معاً فى خلوة يا عنترة ؟ من يدرى أين تدفع بنا الأقدار غداً ؟ فلنجعل آخر عهدنا بالاجتماع حديثاً طويلا .

وجلسا يتسامران ويشربان وقد مضى من الليل أكثره ، وهدأت ضجة الحيرة فى سكون عميق . وقال أبو الحارث وهو يملأ كأسين جديدتين :

— ألك فى كأس أخرى ؟ إننى لا أزال أحس عطشاً .

فقال عنترة : هاتها يا أبا الحارث وإن كنت لا أحس الليلة عطشاً .

فضحك أبو الحارث وهو يبادر إلى كأسه فيجرع منها وقال :

— إنك لم تشرب الليلة كعادتك وكأنى بك لم تطرب .

فقال عنترة وهو يرشف من كأسه :

— لست أحب الليلة أن أغرق شجونى . ولست أريد الليلة نسياناً لنفسى . إننى أتطلع إلى الغد يا أبا الحارث وأود لو بقيت صورة الغد ماثلة أمام عينى .

فقال أبو الحارث ضاحكاً :

— لقد راهنت على زقين من خمر خانقين . وأحب لو راهنتك على آخرين .

فقال عنترة : إنك تشرب بغير رهان كأنك تراهن يا أبا الحارث .

فقال أبو الحارث متأثراً :

— أنت تعلل نفسك بلقاء أحبابك ، ولكنك توشك أن تفارقنا . وإن بى يا عنترة لفراقك لوعة .

ثم قرب إلى عنترة طبقاً من الفاكهة وقال :

— ذق من هذا التفاح يا عنترة . إنه من جنى حلب وهو يكسر شرة[1] هذه الخمر .

وملأ لنفسه كأساً أخرى ورمى فيها بعض زهر النارنج وأطال شمها .

(١) يكسر شرتها : أى يهدىء نشاطها .

ثم جرع منها جرعة طويلة . وكان عنترة قد أخذ تفاحة وجعل يقلبها فى يده ويشمها فقال أبو الحارث :

— أراك تتأملها معجباً كأنك تناجيها .

فقال عنترة :

— إن فيها شبهاً يهز قلبى .

ثم أخذ يغمغم فى صوت خافت وأبو الحارث ينصت إليه باسماً . ثم قال له :

أشاقك من عبل الخيال المبرح فقلبك فيه لاعج[1] يتوهج

ألا ترانى حفظت هذا البيت يا عنترة ؟

فنظر إليه عنترة فى ارتياح وقال باسما :

— إنك لشاعر بطبعك يا أبا الحارث . وإنك لتحفظ الشعر منذ تسمعه فهل لك أن تكون راويتى ؟

واندفع ينشد له سائر القصيدة حتى قال :

لئن أضحت الأطلال منها خواليا

كأن لم يكن فيها من العيش مبهج

فصاح أبو الحارث متمماً :

لقد طالما مازحت فيها عبيلة ومازحنى فيها الغزال المغنج[2]

أليس هذا هو البيت يا عنترة ؟

---

(١) لاعج : الشجن المتحرك الشديد . (٢) المغنج : حسن العينين .

وضحك أبو الحارث ومال على أريكته فى فتور الخمر فقال عنترة ضاحكاً :

– ما أحب إلى أن تكون راويتى .

ثم جعل ينتقل من قصيدة إلى أخرى وأبو الحارث يقاطعه بالبيت بعد البيت منها حتى قال عنترة كأنما يئن أنيناً :

أيا علم السعدى هل أنا راجع
وأنظر فى قطريك زهر الأرابع
وتنظر عينى الربوتين وحاجراً
وسكان ذاك الجزع[1] بين المرابع[2]
وتجمعنا أرض الشربة واللوى
ونرتع فى أكناف تلك المراتع
فيا نسمات البان بالله خبرى
عبيلة عن رحلى بأى المواضع
ويا برق بلغها الغداة تحيتى
وحى ديارى فى الحمى ومضاجعى

فاعتدل أبو الحارث وقال متأثراً :

– وحق مناة إنك يا عنترة لتحب إلى أرض الشربة . ولئن ضقت

---

(١) الجزع : الوادى الواسع ينبت الشجر . (٢) المربع : المكان يرتاده القوم فى الربيع

بمقامك فينا فإن قلوبنا تكاد تنازعنا إلى الرحيل معك .

وسمع عنترة عند ذلك صوتاً فى فناء الدار فقال فجأة :

ـ أما تسمع يا أبا الحارث حركة القوم ؟

فقام أبو الحارث إلى طنف[١] البهو ونظر إلى البراح الفسيح الذى تحته وقال :

ـ لقد أسرع الفجر وحق مناة ، إن هذا الرحيل يوحش ديارنا .

فقال عنترة وهو يقوم :

ـ لئن شكرتك يا أبا الحارث فلست بقادر على أن أوفيك حقك .

ثم فتح ذراعيه وعانقه عناقاً طويلا :

فقال أبو الحارث : لئن كان فى أيامنا مدة فإن أمنيتى أن أراك .

فأجاب عنترة : ولئن تفرقنا فلقد عرفت فيك كيف يكون الصديق . لقد علمتنى فى الحياة معنى جديداً يا أبا الحارث .

ثم صافحه ومضى خارجاً وخرج صديقه يشيعه صامتاً إلى المربد[٢] فى الفضاء الفسيح .

---

(١) الطنف : ما أشرف خارجاً عن البناء .

(٢) المربد : الفضاء المتسع يستخدم جرناً أو مناخاً للإبل .

١٥

سار عنترة فى ركبه العظيم يضرب فى الصحراء عائداً إلى أرض الشربّة والعلم السعدى ، حتى قطع فيافى اليمامة ونجد ودخل إلى أرض الحجاز . ولكنه كان كلما اقترب من وطنه خالجته الشكوك والأوهام . وأحس كأن الشعلة المتقدة فى صدره تضمحل وتخبو . فكان بين حين وآخر يسأل نفسه عما هناك فى تلك الأرض التى كان يتحرق لكى يعود إليها . وهل إذا عاد إليها وجد عبلة لا تزال مقيمة على عهدها ؟ لقد كان لا يزال يحمل النميمة التى أهدتها إليه يوم وداعها ، وكانت ألفاظها لا تزال ترن فى أذنيه كلما تذكرها . ولكن ألا تزال بعد تلك السنين تذكره وتحمل له الوفاء ؟ وكان أحياناً يبلغ منه الشك أن يسأل نفسه أهو حقاً يحبها كما خيل إليه ؟ أم هى لحاجة الوهم تزعم له أنه كذلك وما هى إلا الكبرياء والعناد والتطلع إلى الممنوع .

وكان يتمثل نفسه كأنه لقيها وحدثها فلا يدرى كيف يكون حديثه بعد أن فارقها تلك السنين الطويلة ؟

لقد عاشر بعدها أقواماً لا يشبهونها ، وكم رأى من نساء وكم استمع إلى فتيات بارعات الحسن من بنات العجم والكرد والأرمن . وكم اعتاد فى حديثه معهن أن يترقق وأن يعبث وأن يمّاجن . فهل كان الحديث

السهل الذى اعتاده من قبل مع عبلة يواتيه إذا لقيها أم يمتنع عليه ؟

وهل يستطيع إذ رآها أن يتذلل لها كما كان يتذلل ويسمى نفسه عبدها ؟ هل كان يستطيع أن يجد المتعة فى كلمة يسمعها . أو بسمة عطف تجود بها عليه فتضىء قلبه وتنقله إلى عالم سحرى من السعادة ؟

ولم يخل قلبه من القلق كلما تأمل قومه بعد أن غاب عنهم تلك السنين . فهل يعود إلى عمارة بن زياد ومالك بن قراد وعمرو بن مالك وكل هؤلاء ؟ وهل كان يستطيع أن ينظر إليهم كما كان ينظر وأن يغضب إذا غاضبوه وأن يرضى إذا أقبلوا عليه ؟ هل كان يستطيع أن يعود إلى معاشرتهم وأن يفهمهم إذا حدثوه وأن يفهمهم إذا تحدث إليهم ؟

كان كلما اقترب من وطنه ثارت تلك الشكوك فى نفسه حتى كاد يحس أنه قد صار غريباً عن قومه وأنه لن يستطيع الحياة بين ظهرانيهم .

وكاد يخيل إليه أنه قد أخطأ إذا أطاع وهمه الكاذب فعزم على العودة إلى عبس وفارق أصحابه الذين كان يعيش بينهم سيداً ، واعتاد أن يسمر فى أنديتهم ويعاملهم ويخاطبهم ويحارب معهم وهو عنترة بطل العرب . فهؤلاء الذين عرفهم فى الحيرة والمدائن لم يقولوا له يوماً يا بن زبيبة ، ولم يعيروه يوماً بسواد لونه ولا بهجنة نسبه ، بل كانوا يعدونه سيداً كريماً لأنه كان سيداً كريماً ، فقدموه وأعلوا مكانه لأنه كان جديراً بالتقديم والتمجيد . فما الذى حمله على أن يضيق بالمقام فيهم لكى يعود إلى هؤلاء الذين نشأ فيهم عبداً رقيقاً وقضى معهم الحياة فى نضال وكفاح حتى خرج عنهم يضرب

فى الأرض يطلب مهر عبلة من عرين الأسد ؟ أليس هؤلاء هم الذين لم يرضوا به زوجاً لعبلة حتى يكلفوه بلوغ المحال ؟

حدثته نفسه مراراً أنه قد أخطأ وأن الأولى به أن يعود أدراجه إلى الحيرة حيث يقيم عزيزاً ويغالب هذا القلب الذى طالما أذله وعذبه . ولكنه مع ذلك كله سار فى طريقه يدفعه دافع غامض كأن الأقدار هى التى كانت تسيره نحو غاية لا يدركها .

ولما صار فى أرض الشربة بعد طول السير رأى أن يعرج على الوادى الرملى الذى طالما شهد ملاعب صباه ومراتع فتوته . ذلك الوادى الذى رعى فيه إبل شداد وصارع فيه رفاقه وتعلم فيه الصيد والركوب . فإلى ذلك الوادى كان يفزع كلما ضاق بعنف أبيه أو كبرياء عمه أو ظلم حاسديه .

ولما بدت له ناصية الوادى خطر له ذكر أخيه شيبوب الذى أحبه وصاحبه وكان فى كل مكان مثل ظله . كان تارة جاسوسه وتارة رسوله ، وكان حيناً خادمه وحيناً سميره ، وكان آخر عهده به فى رحلته إلى العراق إذ بقى معه حتى استعر القتال بينه وبين جيش النعمان ثم اختفى عنه إذ أحاط به الفرسان وجعلوا يطعنونه حتى صرعوه عن فرسه الأبجر . ولم يدر عنترة وهو يذكر أخاه شيبوب أكان ما يزال حيًّا يرعى إبل سادته أم قد مضى فى سبيله كما مضت عن الدنيا أجيال الناس من قبله وكما تمضى من بعده . وخفق قلبه عندما تذكر ذلك الأخ الوفى فقد عاش ما عاش

معه عبداً مرحاً ينعم فى رقه ولا يعبأ إلا بطعامه وشرابه وصيده ولا يرى من الحياة إلا مهزلة لا تستحق شيئاً سوى أن يسخر منها ويلهو فيها ثم يمضى عنها مرحاً إذا حان أجله .

ولما اقتربت القافلة من الوادى رأى عنترة على البعد شخصاً على ربوة . فعادت إليه صور الماضى كأنه لم يفارق تلك الأرض إلا منذ ليلة . لقد كان كل شىء على عهده لم يتغير منه شىء ، فالسماء لا تزال زرقاء صافية والرمال لا تزال صفراء لامعة والكثبان لا تزال تعلو وتهبط كأنها الأمواج العاتية فى بحر عاصف جمد فجأة . وصعّد بصره إلى الشخص الذى فوق الربوة وأحس قلبه يتحرك إليه . فقد كان فيه شىء يذكره بوقفة شيبوب . وهمز جواده مسرعاً نحوه وكان الشخص لا يزال ينظر نحوه متكئاً على رمحه ، فلما صار من الربوة على رمى قوسين تبين وجه أخيه شيبوب ينظر إليه وإلى القافلة العظيمة التى أتت تنحدر إلى الوادى من ورائه . ولكن مظهره كان يدل على أنه كان متعجباً لا يدرى من يكون صاحب هذا الموكب العظيم. فلما صار عنترة على مسمع منه ناداه باسمه ، فما كاد شيبوب يسمع صوته حتى وثب نازلا فى قفزات واسعة وهو مشمر عن ساقيه الطويلتين فاتحاً فمه الواسع فى بسمة كشفت عن أسنانه النضيدة البيضاء . وترجل عنترة فوجد نفسه بين ذراعى أخيه وهو يقبل وجهه وكتفيه ويتشممه باكياً يصيح :

ـ عنترة ، أخى عنترة !

فقال عنترة وهو يضمه فى حرارة :

— أنت هذا يا شيبوب مرة أخرى . إنك لأول من أرى وإنك لأول من أحببت أن أرى .

فقال شيبوب بصوت مختنق :

— وأنت هذا أراك حيًّا . أنت هذا حى ألمسك بيدى وأضمك إلى صدرى وأحس دفء أعضائك .

ثم أرسله من ذراعيه ونظر إليه فى دهشة وقال :

— إنى لا أكاد أصدق عينى .

وجعل يصعد فيه بصره ويصوبه[1] . فقال عنترة وهو يأخذ بذراعه :

— أترى فى ما تنكر يا شيبوب ؟ ألا تصدق أننى أخوك ؟

فقال شيبوب فى مرحه المعتاد :

— كيف أكذب نفسى وأزعم أنك عنترة ؟

لقد رأيتك والفرسان يحيطون بك فقلت إنك هالك لا محالة .

فقال عنترة وهو يسير به بعيداً عن الطريق :

— لقد افتقدتك يا شيبوب واشتقت إلى حديثك . فهل بنا إلى هذه الربوة فإن بى شوقاً إلى الجلوس معك على ربوة مثلها .

فقال شيبوب وهو ينظر نحو القافلة العظيمة التى كانت تقبل مبطئة :

— أهذه القافلة لك ؟

---

(١) يرسل بصره إلى أعلاه تارة وإلى أسفله تارة أخرى .

فأجاب عنترة :

— أتعجبك يا شيبوب ؟ ومع ذلك فإن بى شوقاً إلى أن أضطجع على هذه الرمال وأستقبل نسيم الصبا فى الأصيل .

وصعد فى الربوة فاستلقى على سنامها ثم قال :

— أكمل قصتك يا شيبوب . ماذا فعلت بعد أن رأيت الفرسان يحيطون بى ؟ لقد كنت أحسب أنك أنت ذهبت فى رماح القوم .

فقال شيبوب وهو يمسح دمعة فى عينه :

— رأيت الرماح تتهاوى إليك وأنت تسقط صريعاً فتمزق قلبى . نعم تمزق قلبى فقد علمت أننى سوف أقضى سائر الحياة وحيداً لا أجد عنترة إلى جانبى . فأطلقت ساقى للريح أطلب النجاة .

فضحك عنترة وقال :

— إنك لتحب الحياة يا شيبوب .

فأجاب شيبوب باسماً : هى أحب إلى من طعنات الرماح يا عنترة . لقد كانت الأسنة تلمع فى نور الشمس قاسية مخيفة . وماذا كنت أغنى عنك لو قتلت إلى جانبك ؟ أطلقت ساقى للريح وعدت إلى قومى .

فأجاب عنترة : أهم قومك يا شيبوب ؟

وسكت حيناً وأخذ يعبث بكفه فى الرمال الناعمة ثم استأنف فقال :

— لقد كنت خيراً منى . إنك لم تحقد على عبس كما حقدت أنا عليهم . كنت تقول إنك تخونهم وتكذب عليهم وتسخر منهم ، ولكنك

عدت إليهم لأنهم قومك .

فقال شيبوب : عدت إلى قومى لأنعاك إليهم ، فما كل يوم يقتل منهم مثل عنترة .

فقال عنترة :

— ونعيتنى إليهم ؟

فأجاب شيبوب :

— قضينا شهراً نبكى . لكم بكت زبيبة ولا تزال تبكى ولا تصدق أبداً أنك هلكت . فهى إلى اليوم تزعم أنك عائد إليها .

فقال عنترة فى رقة : مسكينة زبيبة . ما أحب إلى أن ألقاها .

وأمسك لحظة وهو مطرق ثم قال كأنه يحدث نفسه :

— ألم يبكنى فى عبس إلا زبيبة ؟

فقال شيبوب باسماً :

— لقد بكوك جميعاً . أعرف أنك تقصد عبلة يا عنترة . لقد بكتك كما بكيناك . بل لقد كانت زبيبة تذهب إليها لتسكن روعها زاعمة لها أنك عائد إليها .

فأسفر وجه عنترة وقال :

— أحقاً ما تقول يا شيبوب؟ وكيف هى اليوم؟ حدثنى يا شيبوب عنها.

فقال شيبوب فى خبث :

— وماذا أحدثك عنها ؟ إننى لا أكاد أراها . لقد عادت مع أبيها

إلى أرض الشربة بعد خروجك إلى العراق ولكنى كنت لا أراها . وماذا يعنيني منها إلا أنك كنت تتعلق بها وأنت حى ؟

فقال عنترة ضاحكاً :

ـ أراك لم تصدق بعد أنني لا أزال حيًّا .

فقال شيبوب : ما كنت أحسب أن أراك أبداً . فكنت إذا مررت على منازل مالك أحسست دافعاً يبعدنى عنها ، فأسرع كأننى أهرب من رؤيتها .

فقال عنترة : وهى؟ حدثنى عنها هى . ألم تسمع زبيبة تتحدث عنها ؟

فأجاب شيبوب : هى امرأة . ليست عبلة سوى امرأة .

لقد بكت ثم جففت دمعها ثم نسيت .

فتحرك عنترة فى قلق وقال :

ـ امض فى قولك وحدثنى عنها . أما سمعت صوتها ؟ أما رأيتها يوماً ؟ انقل إلى أحاديث زبيبة عنها .

فأجاب شيبوب :

ـ إنك لا تزال تتعلق بها . لقد حسبت أن هذه السنين قد أنستك ذكرها . فما هى إلا امرأة من النساء . كنت بالأمس أمر على خبائها فسمعت غناء صاحباتها .

فقال عنترة فى لهفة :

ـ أكانت تغنى ؟ أهو شىء جديد ؟

— فأجاب شيبوب :

— نعم هو عمارة بن زياد . فما كاد يسمع نبأ موتك حتى ذهب إلى أبيها وساق إليه المهر ثانياً . وهل كان مالك ليأبى عمارة وهو يسوق إليه ألف ناقة مرة أخرى . إنه لم يسأل هذه المرة إذا كانت النوق من العصافير أم هى من النسور .

فسكت عنترة حيناً ثم قال فى فتور :

— وهى ؟ أتقول إنها تغنى ؟

فقال شيبوب :

لم أقل إنها تغنى . إننى سمعت الغناء من خبائها .

ثم نظر إلى القافلة العظيمة وقال :

— ولكن خبرنى كيف بلغت هذا ؟

فقال عنترة فى حزن :

— أتسأل الأيام كيف تعبث بنا ؟ إنها تعبس أحياناً وتدبر وتضن فلا تكاد تدع للمرء أملا . ثم تضحك أحياناً وتسخو وتقبل فلا تدرى أكانت جادة فى إقبالها أم فى إدبارها . لقد رأيتنى والفرسان يطعنونى وقد سقطت بينهم صريعاً . وها أنت هذا ترانى أعود إليك وهذه القافلة العظيمة تسير ورائى .

وأطرق حيناً ثم قال كأنه يحدث نفسه :

— باطل وغرور وسخرية من الحمقى .

فقال شيبوب متعجباً :

— لشد ما تغيرت يا أخى .

فأجاب عنترة : لقد تقلب بى الدهر وهزهزنى . كم حروب شهدتها وكم بلاد رأيتها . قضيت هذه السنين لاهياً عن نفسى فكنت لا أحس إلا أننى تاجر دماء أقتل وأقتل وأقتل ولا أكاد أحيا لنفسى . وذقت ما ذقت من نعيم ولهو ولكنى لم أحس يوماً أننى سعيد . قل لى يا شيبوب كم غزوتم وكم غزيتم ؟ وماذا غنمتم وماذا غنم الأعداء منكم ؟ وحدثنى أما ذكرتم يوماً عنترة ؟

فقال شيبوب فى حرارة :

— ما زلت أذكرك فى صباحى ومسائى . وكم ندمت على أننى لم أبق معك حتى نقتل جميعاً . كانت الحياة عندى كئيبة موحشة يا عنترة . ولكنك هذا تعود إلى مرة أخرى . أأنت عنترة حقاً ؟ وحق مناة لست عنترة الذى عرفت .

فأطرق عنترة غائباً فى فكره واستمر شيبوب :

— لشد ما تغيرت حتى كأنك لست أخى . ولو لم أعرفك وأعرف كل جارحة فيك لكذبت نفسى . ولكنى أعرف كل إصبع من بدنك . فهذا جرح يوم عباعب وهذا جرح يوم الحرير . وهذه هى الضربة التى أصابتك يوم عراعر وهذه هى الطعنة التى كادت تودى بك يوم غزوة طيئ . هذه طعنة عمرو بن ود العامرى وتلك طعنة مسحل بن طراق

الكندى . أتذكر ذلك الكندى الذى حاربته من أجل عبلة ؟

— فرفع عنترة رأسه فى شىء من الضجر وقال :

— ولكن ما جدوى حديثك هذا ؟ إننى لا أسألك عن كل هذا .

فقال شيبوب :

— إنى أذكر هذه الآثار لكى تذكرنى بأنك أخى ، ولولاها لما صدقت عينى . إننى أكاد أخافك وأهاب حديثك .

فلم يملك عنترة أن ضحك وقال :

— كفى حديثاً عنك وعنى وعن هؤلاء . لقد سألتك أن تحدثنى عنها

فقال شيبوب فى عناد :

— أما قلت لك هى امرأة . اسمع نصيحتى فأنا أكثر الناس علماً بهن . وحق مناة ما رأتك امرأة مع هذه القافلة إلا تمنت أن تكون لها بعلا . لقد خرجت من عبس وأنت عنترة ، ولكنك تعود إليها وليس فى العرب من يقرب من قدرك .

فقال عنترة فى سخرية :

— حتى أنت يا شيبوب ؟

فقال شيبوب :

— لقد كنت أحبك لأنك أخى . كنت معى رفيقاً حيناً وكنت حيناً عنيفاً ، وكنت تتذلل حيناً وتتكبر وتعتو حيناً . لكنى كنت دائماً أحبك ولا أنكمش إذا نظرت إليك كما أفعل الآن .

إننى منذ رأيتك اليوم هبتك ووددت لو صرت لك عبداً . فكيف بهذه النسوة إذا رأينك فى هذه الهيئة وهذه القافلة تسير من ورائك ؟ كيف بهن إذا رأين هذه الريشة التى فوق عمامتك وتلك الجواهر البراقة التى تتلألأ من تحتها ؟

فضحك عنترة وقام فنزل عن الربوة وسار فى الوادى وشيبوب يسير إلى جانبه .

وقال بعد حين :

— أما إنك ما زلت كما كنت خبيثاً يا شيبوب . أما تذكر كيف كنت توقد غيظى ثم تطفئه ؟ وكيف كنت تملأ قلبى حقداً عليك ثم تسله كما تسل الشوكة من الأديم[1] ؟ أنت لا تزال كما كنت .

فقال شيبوب وقد اتسعت بسمته :

— أطعنى يا ابن أمى ولا تطع كبرياءك . إنك وحق مناة جدير بأن تكون ملكاً . ولسوف أخطب لك هند ابنة زهير سيد عبس .

فضحك عنترة وقال :

— إنك تصر على أن تحدثنى عن كل شىء سوى عبلة .

فقال شيبوب :

— وماذا أقول لك عنها . سوف يكون زفافها بعد ثلاث . سيكون زفافها يوم عروبة[2] .

---

(١) الأديم : الجلد .

(٢) يوم عروبة : يوم الجمعة .

فصاح عنترة :

— أتقول إنها رضيت ؟

فقال شيبوب : لم أقل رضيت ، وماذا يعنيني إذا كانت قد رضيت أو أبت . لقد رضي أبوها . ولسوف أحرق قلبها وقلب مالك بن قراد وعمرو بن مالك . بل سوف أحرق قلب عمارة بن زياد عند ما أزوجك من هند ابنة زهير . أما قلت لك إن أباها زهير قد قتل ؟ لقد صار ابنه قيس سيد عبس .

فقال عنترة : أقتل زهير ؟ أما إنه قد كان سيداً كريماً .

وسكت لحظة ثم قال في هدوء : هند ، قيس ، زهير ، هذه كلها أسماء أسمع لفظها . ولكن عبلة قد تزوجت . أما تقول إن زفافها يوم عروبة ؟

فقال شيبوب : نعم يوم عروبة .

وجعل يعد الأيام على أصابعه وقال :

— بعد ثلاثة أيام .

فأطرق عنترة ومضى شيبوب في حديثه يذكر حوادث تلك السنين في سياق مضطرب متدفق . وكان عنترة يغمغم في إطراقه بنغم حزين ثم رفع رأسه بعد حين وقال :

— إذن سوف أعود إلى عبس فأمر بعرسها آخر الأمر ، كأنني مكدود سار يطلب الحج إلى الكعبة فمر في طريقه بقصر بخيل يحيي وليمة .

فجعل ينظر إلى الأضواء المنبعثة من القصر ويسمع أصوات الغناء والمرح والقصف وهو يسير ضعيفاً محروماً خافت الأنفاس .

إنك قد ملأت قلبي حزناً يا شيبوب ، وأحس كأن هذا الفضاء يضيق بى . أقلت آنفاً إن عبلة كانت تغنى ؟

فقال شيبوب فى رفق : لم أقل إنها كانت تغنى . لقد سمعت الغناء من خبائها . ولكنها امرأة وأحب أن أراها تأكل قلبها غيظاً من الحزن ، إذا رأتك وأنت تعود إلى عبس بهذه القافلة كلها .

فقال عنترة : أمسك ويلك يا شيبوب ، فإن الجرح لا يزال دامياً . كنت حسبت أنه قد اندمل وكنت أسأل نفسى كيف أكون إذا عدت إلى أرضى ورأيتها . وها أنت هذا تعيدنى إلى نفسى القديمة فجأة ، كأن تلك السنوات قد طويت كلها فى يوم . فأنا اليوم كما كنت من سنين لم يتغير فى قلبي شيء .

فقال شيبوب : وأما أنا فإن قلبي ممتلىء حقداً كما كان ممتلئاً حقداً . فهل تريد أن تعود إلى هؤلاء ، تتذلل لهم وتطلب منهم بنائهم فيقولون لك إنك ابن زبيبة ؟

فقال عنترة : لست أدرى كيف ألقاهم وكيف يلقونى . إننى نسيتهم حيناً وخيل إلى أننى لن أحس لهم خلجة فى طيات نفسى . ولكنى لست أدرى . . .

وأمسك عن الكلام حيناً وتبللت عيناه بالدمع ثم قال :

— لن أرضى أن تكون عبلة امرأتى إذا هى رضيت بغيرى .

فصاح شيبوب : أو ترضى بها أنت إن رضيت بك ؟

فقال عنترة فى رقة : أتقول إنك لم ترها ؟ ألم تقع عينك عليها يوماً تطلع كالشمس وتزهر كالقمر ويفوح نسيمها كالزهر ؟ أما سمعتها تتحدث ؟ أما سمعت زبيبة تتحدث عنها ؟ ولكننى لن أرضى بها إلا إذا كانت هى ترضى بى .

فضحك شيبوب قائلا :

— هذا خطب يسير يا عنترة . اطلع عليها بهذه الإبل ولسوف تفوز برضاها .

فأمسك عنترة بذراع أخيه وقال له جاداً :

— قلت لك إنك تثير نفسى وتملأ صدرى غضباً . اسمع أيها . . . اسمع يا شيبوب ولا تتردد فى حرف مما أقول . اسمع وأطعنى فيما أقول حرفاً حرفاً .

فنظر إليه شيبوب خاضعاً وقال :

— ستجدنى مطيعاً .

فقال عنترة :

— لست أحب أن أعود إلى عبس إلا كما خرجت منها . لسوف أعود إليها ألتمس قوتى بقوسى وسهمى وسيفى . لن أحرص على جاه ولا على نسب فإنى قد رأيت من الحياة ما زهدنى فى كل جاه ونسب . لقد

كنت أغضب لأشياء أراها اليوم لا تغضبنى . كنت أغضب إذا لم أجد لى بين الناس مكاناً . ولكنى اليوم لا أبالى أن أكون بين الناس . لا أبالى بشىء من كل ذلك يا شيبوب فاسمع وأطع كما قلت لك .

ثم التفت إلى القافلة العظيمة وكانت تسير فى طريقها ناظرة أمامهما نحو أرض الشربة وقال :

— أترى هذه القافلة التى تملأ البطاح ؟ اذهب وراءها إلى منازل عبس حتى إذا ما جئتها فناد المساكين الذين كانوا يسيرون ورائى ويحاربون معى . وادع الصعاليك الذين كانوا يلوذون بى ، ففرق هذه الأحمال فيهم حتى لا تبقى منها شيئاً . كل عبيدى هؤلاء أحرار . ولهم من القافلة ما شاءوا . ثم امض بهذه الإبل التى تراها بين سوداء وبيضاء ففرقها بين الضعفاء حتى لا تبقى منهم واحداً فقيراً . فإذا بقيت منها بعد ذلك بقية فانحرها وألق بها فى القفر لتكون وليمة لوحش السباع . وهذه النوق العصافير التى أتيت بها لتكون مهر عبلة ، اذهب بها إلى مالك بن قراد وقل له هى هدية لعبلة لينحرها يوم زفافها ، ويطعم منها قوم عمارة ابن زياد ومن يجىء من أحياء العرب ليشهدوا عرسه ثم احمل هذه الأحمال التى تراها فى آخر القافلة على الإبل السوداء . فقد أودعت فيها تحفاً من طرائف العراق وفارس وأذربيجان لتكون هدية لعبلة يوم جلوتها . فخذ هذه واذهب بها إليها هى وأبلغها أنى كنت وعدتها يوماً فى غضبى أن أهدى إليها هدية يوم زفافها . قل لها هذه هديتى بدل تلك التى وعدتها . قم

منذ الساعة ولا تنطق بحرف . وسأنتظر هنا حتى تنفذ أمرى وتعود إلى بعد ثلاث .

ثم لحق عنترة بالقافلة فأنزل بعض الأحمال ونحاها إلى جانب قائلا :

— أما هذه فنصيبي . هذه خمر معتقة أجعلها نصيبي .

وأراد شيبوب أن يتكلم فأشار إليه عنترة بأمره بالسكوت قائلا :

— أما وعدت أنك تطيعنى . اذهب وافعل ما أمرتك ولا تنطق بحرف يا شيبوب .

ثم وثب على فرسه وأغمد فى جنبه الركاب فانطلق به فى الوادى . ووقف شيبوب حيناً ينظر إليه ، ثم هز رأسه وسار يقود القافلة نحو ديار عبس .

١٦

أمضى عنترة الأيام الثلاثة يضرب فى فجاج[١] الصحراء يصيد طعامه كما كان يفعل من قبل ، ويعكف فى الليل على زقاق الخمر المعتقة . وكان فى أثناء ذلك موزعاً بين موجات عنيفة من أشجان متصادمة . فكان حيناً يثور به الحزن والجوى حتى يرى الفضاء يضيق به . وحيناً تدفعه موجة أخرى من الغضب حتى يهب فينطلق بجواده فى البراح سواء أكان فى ليل أم فى نهار . وكانت تعتريه بين هذه وتلك حالات هدوء ساهم واجم فيحس كأن قلبه قد جمد وسلا فلم يبق فيه ما يحمله على حزن ولا على غضب . وكان فى أثناء ذلك كله يتنقل من مكان إلى مكان حيث كان يتنقل من قبل إذ كان يرعى إبل شداد ، وهو بين حين وآخر يغنى بشعر يتدفق به مستعيداً ذكرياته . كان يعرج على الصخور الملساء التى طالما توقل فيها[٢] بعد نزول المطر وشرب من مائها البارد الصافى ، ويعرج على بطون الأودية التى تشقق طينها الأصفر بعد أن جف . وكان يميل بين حين وآخر على زهرة من العرار بين الشوك أو عود من الخزامى بين الصبير أو أقحوانة بين الحنظل . فيتأمل شكلها ويشم رائحتها كأنه يسألها : كيف يثوى الزهر بين الشوك والمرار ؟ أو كيف تعيش عبلة فى عبس ؟

---

(١) الفج : الطريق الواسع بين جبلين . (٢) توقل فيها : صعد فيها .

وكانت تلك الجولات تعيد إليه اطمئنانه بعد أن يملأ صدره من الهواء كما كان يملؤه إذ كان فتى خالياً .

وكان كلما تذكر أنه قد تخلص من الأموال العظيمة التى حملها معه من المدائن والحيرة أحس ارتياحاً كأنه قد تخلص من ثقل كان يجثم فوق صدره ، ودب إليه شعور عجيب بأنه قد استعاد روحه الذى كان قد فارقه منذ دخل أرض العراق .

وعند ذلك كانت تلك السنوات التى قضاها بعيداً عن أرضه تلوح له كأنها سنوات سجن ضيق شاهت فيها نفسه حتى كاد ينكرها ، وتغير فيها قلبه حتى كاد لا يعرف نبضه . وخيل إليه أنه قد فارق ذلك السجن إلى حيث يستطيع أن يعرف النور وحيث يرى النجوم الساطعة والبدر المتألق والشمس التى تبسم حيناً وتحرق حيناً والهواء الذى يعصف مرة ويهب فى وداعة مرة أخرى .

ولم يخل قلبه فى كل تلك الجولات من ذكر عبلة ، ولكنه كان كلما ذكرها عجب أشد العجب من هدوئه كأنه كان واثقاً من أنها لا تزال تنتظره . فإذا تذكر عمارة بن زياد لم يغضب ولم يحقد بل كاد قلبه يعطف عليه كأنما يواسيه عن انصراف عبلة عنه . وكان يناجى صورتها ويتمثلها تقبل عليه باكية معتذرة تعيد عليه كلمتها يوم ودعته فى شيبان : « سوف أنتظرك وإن طالت غيبتك » .

ومضى اليوم الثالث وانقضى يوم عروبة الموعود وعاد إلى الربوة التى

لقى عليها شيبوب يوم عاد إلى أرض الشربة فى قافلته العظيمة .

وهبط عليه الظلام فجأة بعد غروب الشمس فدخل إلى صدره شىء من الوحشة وسأل نفسه : ليت شعرى ما الذى عاق شيبوب فلم يعد إلىّ ؟ أتكون عبلة قد زفت حقًّا إلى عمارة ؟

ثم طلع القمر فأضاء الفضاء وأخذ عنترة زقًّا من الخمر وفضلة من لحم غزال بقيت عنده ، ثم جلس يشرب ويتأمل السهم الذى يمتد تحت عينيه ساهماً . وقضى الليلة فى شراب ينادم نفسه متغنياً بشعره حتى طلع الفجر فأغفى إغفاءة أفاق منها على صوت يناديه والشمس ترسل شعاعها عليه من وراء التلال . ثم رأى زبيبة ، فقام مسرعاً يثب فوق الرمال حتى أحس بنفسه بين ذراعى أمه . وأرسلت زبيبة ابنها من بين ذراعيها وجعلت تنظر إليه فى دهشة وإعجاب ، ثم زغردت وألقت نفسها عليه مرة أخرى وهو يمسح على رأسها بعطف ، وتبللت عيناها دمعاً . وقالت بصوت مختنق :

ــ لقد كنت أحس منذ فارقتنى أنك عائد إلىّ يوماً . لم أصدق ما قال شيبوب هذا ولا ما قال الناس عنك .

ولم يجد عنترة فى دفعة اللقاء ما جعله يفرغ إلى تأمل ملابس أمه وأخيه ، فقد كانا يلبسان تلافيق عجيبة من الثياب اختارها كل منهما طوع هواه من أحمال القافلة .

فكانت زبيبة فى حلة حمراء، وفى قدميها خف من الفرو والأسود

وتمنطقت بمنطقة فضية نزعتها من حمائل سيف ، وتقلدت ببعض قلائد من العقيق والمرجان ، وجعلت على يديها أساور من الفضة والذهب والكهرمان .

وكان شيبوب يلبس عمامة ذات ريشة عالية ، ولآلئ تبرق من تحتها ، وتلفع بثوب محلى بالقصب وجعل فى وسطه سيفاً محلى بالذهب والفضة ، ولم يبخل على رمحه بحلية من عقود المرجان وشرائط الحرير .

وتبسم عنترة عندما تنبه إلى ملبسهما ، ولكنه لم يجد متسعاً للحديث ، فقد رأى ركباً عظيماً يقبل عليه وراء ثنية الوادى . فنظر إلى القادمين وتهلل وجهه فرحاً وهمس إلى شيبوب :

ــ أكان الزفاف يوم عروبة ؟

فغمز شيبوب بعينه مرحاً وقال فى خبث :

ــ سوف أحدثك طويلا .

وجاء القوم جمعاً بعد جمع يحيون عنترة وكان الفتيان فوق الخيول يملأون البطحاء الممتدة بين الكثبان ، يهتفون باسم عنترة ويلوحون بالسيوف والرماح . وجاء فى صدر الجموع قيس بن زهير سيد عبس فى آل جذيمة وآل شداد ، وجاء من بعدهم سادة عبس وفيهم عمارة بن زياد . وكان عنترة يلقاهم باسماً ويحييهم وهو متحرك الشجون . وكانوا ينظرون إليه فى عجب : أذاك هو عنترة ؟ وكان النساء والفتيات يقبلن عليه ضاحكات

يرحبن به ويرفعن أيديهن إلى نحورهن يلمسن العقود المتلألئة التى بعث بها إليهن ، ويلوحن بمعاصمهن ليظهرن الأساور التى أخذنها من هداياه .

ثم جاءت أخته مروة وإلى جانبها عبلة تمشى على استحياء . فرآهما وما يرى فيهما سوى عبلة تنظر نحوه فى خفر ، وتكاد تتعثر فى مشيتها . وكان يبدو على وجهها ما يشبه أن يكون ابتسامة ولكنها كانت بسمة مترددة فيها شىء من الارتباك وشىء من الخشية .

وحيا عنترة أخته باسماً عاطفاً . ولكنه كان مشغولا فيما يقوله إذا سلمت عليه عبلة . ومرت عليه لحظة قصيرة طويلة ثم سمع أخته تضحك وتقول له فى عبثها كعادتها .

— لقد حسبت أنك سوف تخطف عبلة منذ تقع عينك عليها .

فنظر إلى عبلة وابتسم لها ، وما كاد يأخذ يدها حتى وجد أنه يقاوم دافعاً قوياً لا يقوى عليه .

وسمعها تقول له فى همس :

— مرحباً بك عنترة .

فهم أن يرفع يدها إلى شفتيه فأحست بحركته فقبضت يدها فى رفق ، وحاولت أن تجد لفظاً تتوارى به عن أعين الذين أحست نظراتهم جميعاً تقع عليها . ولكنها لم تجد لفظاً ، فأطرقت وغمغمت ببعض ألفاظ مضطربة ، وخيل إليها أن تلك اللحظة القصيرة قد امتدت دهراً . فلوت رأسها تريد أن تفسح لغيرها ممن ازدحمن حولها لتحية عنترة . فقال عنترة

كأنه ينطق بغير وعيه :

— سيدتى !

وما كاد يتم كلمته حتى صاحت أخته مروة ضاحكة فى خبثها :

— أما سمعتم قوله ؟ عنتر عبد عبلة !

فانفجرت ضحكة من الحاضرين ونظرت إليه عبلة عاتبة واحمر وجهها . ولكن سحابة الوجوم انقشعت عند ذلك وانطلق عنترة يقول لأخته فى مرح وهو لا يزال ممسكاً بيد عبلة :

— إنك أيتها الأخت الحبيبة تذكرينى بأيامى السعيدة . أيام كان عبثك يغيظنى .

فقالت ضاحكة :

— أما يغيظك اليوم ؟

واتجهت إلى عبلة فى خفة قائلة :

— ولكنه ما زال يغيظها . انظر إليها كيف ينطق وجهها بكراهتى .

ثم اتجهت إلى عنترة قائلة :

— ما هذا اللقاء الفاتر يا عنترة ؟

ثم عادت إلى عبلة فقالت لها :

ها هو ذا دونك فتعلقى برقبته . أما كنت تقولين لى متى أراه ؟

فعاد الضحك إلى الجميع ، ورفع عنترة يد عبلة إلى شفته فى شىء من القسر وقبلها .

وغربت شمس ذلك اليوم مرة أخرى كما غربت سائر الأيام . وكانت النيران توقد فى شعب الجواء . وأصداء الغناء تتردد بين الخيام من كل جانب بشعر عنترة . واجتمع فتيان عبس على الخيل فى الفضاء الفسيح حول الحلة يتطاردون ويتراقصون فوق الجياد ، بعضهم واقف على ظهرها عريا وبعضهم يتقلب فوقها ويدور من تحت بطونها ، وخرج فيهم عنترة وكانت عبلة على جوادها إلى جانبه حتى إذا صار فى وسط الحلبة تقدم عنترة شاهراً سيفه يلمع فى ضوء النيران الموقدة ، وركض جواده فى وسط الحلبة منشداً :

أرض الشربة تربهـا كالعنبر ونسيمها يسرى بمسك أذفر
يا عبـل كم من غمرة باشرتها بمثقف صلب القـوائم أسمر
فأتيتهـا والشمس فى كبد السما والقوم بين مقـدم ومؤخر

وكانت الأصداء تتردد فى الفضاء من إنشاد الفتيان فى نواحى الميدان :

أنا فى الحرب العـوان غـير مجهول المـكان
أينما نـادى المنـادى فى دجى النقـع يرانى
خـلق الرمـح لـكفى والحسـام الهندوانى
وهمـا فى المهـد كانا فـوق رأسى يؤنسانى
أتـرك القـوم حيـارى من ضرابى وطعـانى

ولما انتهى الحفل الصاخب إلى مطلع الفجر ركب عنترة وزوجه إلى

السرادق العظيم الذى أقامه شيبوب لهما فى أقصى الحلة ، ذلك السرادق الذى أهداه إليه كسرى وما زالت قبائل العرب تتحدث عنه ، كأنه المدينة إذا أقيمت قوائمه . كانت جوانبه محلاة بنقوش الذهب ودعائمه ملبسة بصفائح الفضة ، فإذا أضاءت فيه المصابيح فى الليل تلألأت أنوارها فوق فصوص الجوهر المنثورة على جوانبه .

وسار شيبوب وراءهما يشيعهما حتى دخلا فى السرادق فقال ينادى عنترة :

— أما كنت تريد أن أحدثك طويلا ؟

فنظر عنترة إليه باسماً ثم التفت إلى عبلة وأمسك بكتفيها ناظراً إلى عينيها وقال :

— لا بأس عليك يا شيبوب فإنى أحب سماع الحديث منها .

ثم ضمها بين ذراعيه ولفت شيبوب عينيه مغمغماً ببعض ألفاظ مبهمة ومضى عنهما يمسح دمعة سرور جالت فى عينيه .

رقم الإيداع	١٩٨١/٢٩٩٠
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٧٣٤٦-٨٣-٢

١/٨١/١٣٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)